



معاوية ابن أبي سفيان
عمر أبو النصر







# معاوية

# ابن ابى سفيان

علي حامد أبو زيد

تأليف

## عمر أبو النصر



الطبعة الاولى ١٣٥٥ — ١٩٣٦

المطبعة الوطنية • بيروت

# بسم الله الرحمن الرحيم

طوينا في ما سلف من كتب عهداً ماتعاً رضياً، اجمع المؤرخون لعهدنا، انه من اروع عهود الاسلام جلالاً، وروعة وعدلاً، وقد تخيرنا منه جملة جعلنا لها باباً رحباً على قدر، ثم سويناها كتباً، تقبلها جمهرة القراء بقبول حسن، وافضوا الينا بكثير من العطف والتقدير لما رحنا نعانيه من نصب في تبويبها، وعناء في تخير اخبارها واحداثها.

ونحن نعرض اليوم لعهد جديد من عهود الاسلام، ونستقبل ملكاً عضوضاً قوامه خلفاء بني امية، واهم مزاياه غلبة العنصر العربي على كل شؤون الدولة، بخلاف ما كانت عليه حاله عهد العباسيين وغير العباسيين من الممالك التي خلفتها الايام، ومكنت لها الاقدار من الحياة والحكم.

واذا نحن اشرنا الى هذه الظاهرة فلاننا في مؤلفاتنا هذه

انما نريد ان نعرض للاعمال لا للاشخاص ، وللعربية لا للحزبية ، وللاسلام ونشوءه ، لا الى هذه المذاهب التي ادخلت في الدين لغير ما غرض الا هذا التأييد المفضوح للاغراض والمقاصد الخاصة، ونحن في ذلك انما نروج للمثل الاسلامية العليا ، فالاسلام ما كان ولن يكون وقفاً لفئة دون اخرى، ومحمد ما كان ولن يكون خاصاً بجماعة دون سواها ، الاسلام دين العالم ودين العربية ، ولا فضل لمؤمن على آخر الا بالخدمة العامة والعمل الصالح .

يدعونا الى نفض هذا الرأي الصريح في صدر هذه المقدمة ما لمسناه لاشهر خلت من رغبة تدعونا الى الخروج عن الاوضاع التي استقر عليها رأينا في اخراج هذه السلسلة وتسويتها للناس كتباً ، تتحدث بمفاخر الاسلام ، واعمال رجالاته، دون ما تحيز منا الى نعرة خاصة ، وعصبية معينة ، ودون ما دعاوة لشخص دون آخر ، ثقة منا ان افضل ما نفضي به الى العربية والاسلام من خدمة هو في تصوير الحوادث والوقائع على نور الحقيقة ، وفي بحث نشؤ الدولة الاسلامية بحثاً متعانقاً متناسقاً قوامه احقاق الحق ،وتألف القلوب ، والدعوة الى الوحدة التي دعا اليها محمد ، ونادى بها كل مخلص من رجالات الاسلام والعربية .

نحن من انصار حرية الرأي ما ساهمت هذه الحرية في تأليف القلوب ، وازالة الاحقاد ، فلا ننكر على احد من المسلمين ان

يقف من بعض رجالات الاسلام وخلفائه السابقين موقفاً فيه عنت وفيه نقد، وفيه انكار، واما ما ننكره فهو ان تتنكر جماعة من المسلمين لجماعة اخرى دون ما سبب إلا إختلاف هذه معها في تقدير المسؤوليات التاريخية، والنظر الى المصالح الاسلامية العليا قبل كل اعتبار آخر، والرغبة في لزوم الاعتدال فيما يتصل بالحكم على بعض الخلفاء، ثقة منها ان هذه الاحداث الماضية، وقد طوتها الايام لا يجب ان تكون سبيلاً الى بعث الخلاف، ونفض الحزازات، واثارة العواطف، خصوصاً ونحن نعتقد اعتقاداً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ان الاسلام يقف على مفرق الطرق، وانه من المفروض على رجاله وانصاره ان يعملوا قبل كل شيء لمصلحته لا لمصلحتهم، وان يواروا هذه الاحداث الماضية التراب ويسدلوا عليها الستار، فلا يبعثونها امراً منظوراً، ولا يعملون الى بعثها لتكون سبيل تفرقة، ورسول خصومة واحقاد.

ما كان لمسلم ان يشرك بالله، ولا كان لعربي ان يجعل مع محمد انداداً، ونحن في ما نخرجه للناس من كتب عن نشؤ الدولة الاسلامية، لا نميل مع الهوى، ولا نتبع الا الحق، ولا نقول الا صدقا، والذين يسألوننا مدح الاشخاص، وتقدير الرجال، دون ما نظر الى ما افضوه الى الاسلام والعربية من خدمات، انما يكلفون انفسهم شططاً، فنحن نؤرخ لمحمد والاسلام، ولا نؤرخ لفلان

وغير فلان ، ومن اخرته طبيعة العجز — من رجالات الاسلام — عن ان يكون في صف الرجال العاملين، لن يوفق معنا الى اكثر من حقه ، ولن ينال اكثر مما كتب الله له ان يكون .

***

هذا موقفنا، وهو موقف نعلم انه قد لا يرضي بعض الشيوخ — ولا نقول كل الشيوخ — وانما اولئك الذين يعيشون من هذا الخلاف الواقع بين الجماعات الاسلامية ، وفي سبيل هذا العيش تتكشف لجمهرة المسلمين في كل يوم — عورات — من حقها ان تستر وتطوى ، لولا ان اصبح التسول أعلى الفضائل في نفوس هذا البعض، وماذا يضيرهم ، ان تتمزق العربية ، وما يهمهم ان ينهار الاسلام ، وماذا يهمهم ان يكونوا اداة فعالة في هذا التمزق ، ما دام الاختلاف سبيل العيش ، والانهيار سبيل الدرهم ، والدرهم هو كل شيء ، وهم في هذا الامعان ، وهذه الرغبة الملحة في سبيل الدرهم يساومون في الاسلام ، ويبيعون دين محمد بيع السماح .

لا جرم ان مثل هذه الذهنية عند شيوخ الدين بمقدار من الخطر عظيم ، فهي ابداً تهدد مكانتهم الادبية عند مختلف الطبقات الشعبية المثقفة ، وهي ابداً تحول بينهم وبين الاصلاح الديني الذي يجب ان يكون رائدهم في شتى اعمالهم ، وهي ابداً تضير الدين نفسه

عند اصحاب النفوس الساذجة ، واما عند المثقفين فقد تدفعهم الى ترك الشيوخ وشأنهم ، ذلك انهم افهم للدين وواجباتهم الدينية من سواهم ، وهم ابداً يعلمون ان لا كهنوت في الاسلام ، وليس احد منهم ليفترض في ان يكون الشيخ مهما سمت مكانته — واستطار فضله — وسيطاً بينه وبين ربه .

أرأيتك وانت تقرأ اخبار السلف الصالح اكان يدور في خلدك ان تسائل نفسك عن تقوى الشيخ وصلاحه ، وعن علم الشيخ وثقافته ، وعن خلقه وطهارته ، فقد كان هذا امراً مفروغاً منه ، كان واجباً حتماً على كل من يلتمع شعار الاسلام في رأسه ان يكون هيناً ليناً تقياً صالحاً صادقاً مخلصاً ، لا تمتد يده الى عرض الدنيا ، ولا ينصرف به الفكر الى عيش ودرهم ، فقد كان همه خدمة ربه وخدمة محمد ، وكان شأنه ان يروج لمكارم الاخلاق ، وجميل الصفات ، ومنافع الاتحاد ، وان يدعو الى سبيل ربه بالموعظة الحسنة ، والهدي الصالح .

واما اليوم فماذا نقول ، لقد تبدلت الارض غير الارض ، واصبح بعض الشيوخ اداة فعالة في الاختلاف والتفرقة ، وامعنوا في ذلك امعاناً اصبحنا نخشى معه ان يتولى الخطر والتمزق الاسلام والعربية ، وهم في عملهم ما يردهم خوف الله وسلطانه عن العبث والسرف ، ولا يردعهم ضمير عن الاغراق في تمزيق الاسلام فيما

يحاولونه من اثارة الحفائظ بين فئة واخرى، ومن التنديد بفلان وفلان من انصار محمد ، وما كان محمد داعية تفرقة ، ولا كان القرآن سبيل اختلاف ، واذا كانت هناك اخطاء تولى كبرها بعض رجالات الاسلام، وخلفاء العربية ، فما ذنب الاسلام، وما شأن العربية حتى يظل كرة يتقاذفها ابناء البيت الواحد ، وكل يحاول ان يقول انها له ، وانه اياها ؟

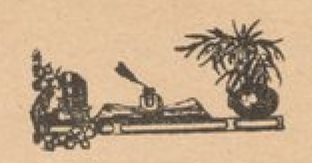
***

هذا ما رأينا تقديمه تبياناً لخطتنا الجديدة في هـذه السلسلة التي ستعرض لنشوء الدولة الاموية ، وتبسط الاسلام في عهدها ، وقد آلينا على انفسنا ان نساوق في دراستها وتبويبها هذه الجدة الجديدة في بحث التاريخ وتصوير حوادثه وملاءمة هـذه الحوادث مع الزمن الذي وقعت فيه ، وسيجد الكثيرون ان هذه الصورة ستكون مخالفة كل المخالفة لما قرأوه في الكتب القديمة من حيث تبويبها وتقسيمها وتفسير احداثها ووقائعها ، ولكنها الى ذلك كله ستكون صورة صادقة كل الصدق، ملمة كل الالمام بمختلف الحوادث وشتى الالوان ، لان الناس في عهدنا يريدون ان يتعرفوا الى ما وراء هـذه الامور التاريخية ويرغبون في التعمق الى حقائقها والوصول الى اقصى حدود المعرفة فيها .

ولقد قام في الماضي بين شباب العرب والتاريخ العربي الاسلامي

القديم سور من اليأس عميق ، حال بينهم وبين ان يصلوا الى اغراضه ويتفهموا كنهه والوانه ، وقد استيأس الكثيرون من الوصول اليه ومعرفة حقائقه ، واخذوا يروضون انفسهم على الاستغناء عنه والاكتفاء بدراسة التاريخ الاوربي ورجالات هذا التاريخ في الحرب والسياسة والاخلاق والحكم ، فاذا وفق القائمون بتأليف هذه السلسلة وطبعها الى بعث الرغبة في دراسة التاريخ الاسلامي العربي على ضؤ هذا البحث الجديد والتبويب الطريف فهو كل ما يطلبون ويبغون .

بيروت ١٠ صفر سنة ١٣٥٥
٣٠ نيسان سنة ١٩٣٦



## — ١ —

# القتل السياسي في الاسلام

خرج معاوية بن ابي سفيان في صباح يوم بارد من ايام شهر كانون الثاني سنة ٦٦١ ميلادية لصلاة الصبح في مسجد دمشق ، كما كان من عادته ان يفعل ، وكان الصباح بارداً ثقيلاً ، والمطر يتنزل رذذاً متصلاً فارخى معاوية عباءته عليه واسدل بعضها على رأسه ووجهه ، ومضى يخطر في الطريق المتواضع القصير بين القصر والمسجد وحرسه خلفه ، وقد خلوا بينه وبين نفسه ، وكان معاوية قد شغله ما يحاول تدبيره من احكام خطته والوصول الى اغراضه، والنيل من سلطان امير المؤمنين علي بن ابي طالب عن التفكير فيمن حوله من المارة ، فلم يفطن الى شخص كان يترسم خطواته منذ فارق قصره وراح يتبعه الى باب المسجد فيأخذ مجلسه على عتبته ، ويده على قبضة سيفه المخفى تحت ردائه .

وكان معاوية يتئد في مشيته، وينقل خطواته على قدر ، وهو لا يزال على حاله من اطالة الفكر وتشتت الخاطر ، حتى اشرف على باب المسجد، فوقف الغريب فجأة وشد عليه بسيفه فوقع السيف في إليته ، وتسارع الحرس والناس الى الرجل فاخذوه، وعاد معاوية

الى وعيه فامر رجاله بنقله الى القصر لاستنطاقه ومعرفة امره ، وارسل يدعو ( الساعدي ) طبيبه اليه ، فلما مثل امامه ، ونظر اليه قال له :

_ إختر اما ان احمي حديدة فاضعها موضع السيف ، وإما ان اسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها ، فان ضربتك مسمومة .

فقال معاوية : اما النار فلا صبر لي عليها ، واما الولد فان في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني .

فسقاه شربة برىء منها ، ولم يولد له من بعدها .

وكان الذي ضرب معاوية بالسيف البرك بن عبد الله ، وهو رجل من الخوارج اجمع ثلاثة منهم على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص ،فوفق قاتل علي الى غرضه [1] وفشل الآخران ،وامر معاوية عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد، حتى لا يؤخذ على حين غرة كرة ثانية ، وهو اول من فعل ذلك في الاسلام .

***

وجلس ثالث المتآمرين عمرو بن بكر ، لعمرو بن العاص الليلة نفسها ، فلم يخرج الى الصلاة لشكاة اصابته ، فامر خارجة بن

---

(١) انظر تفاصيل المؤامرة في كتابنا ( علي بن ابي طالب )

ابي حبيبة بالصلاة بالناس، وكان صاحب شرطته، فلما خرج خارجة شد عليه القاتل، وهو يرى انه عمرو بن العاص، فضربه فقتله، فاخذه الناس الى عمرو، فسلموا عليه بالامرة فقال القاتل :

ـ من هذا ؟

قال الناس : عمرو بن العاص امير مصر .

قال : ومن قتلت ؟

قالوا : خارجة صاحب شرطته .

فقال القاتل : اما والله يافاسق ما ظننته غيرك .

فقال عمرو : اردتني واراد الله خارجة [1]

وقدمه عمرو الى القتل فقتل .

***

لقدفشل قاتل معاوية، واخفق قاتل عمرو بن العاص، ووفق قاتل علي بن ابي طالب وكذلك ارادت الاقدار، فانتهت بموت الامام دولة الخلفاء الواشدين، وتوارى ذلك اللون الديني الماتع الذي كان يغمر ثلاثين عاماً من تاريخ الاسلام .

ومن الحق ان نعرض لهذه الظاهرة الجديدة من رواج القتل السياسي في حياة هذه المملكة الجديدة الفتية فقد، قتل الفاروق غيلة وذهب ضحية مؤامرة سياسية روج لها بعض موتوري الفرس

---

(١) ويروى ان الخارجي هو الذي قالها وليس عمرو بن العاص .

وغير الفرس من العناصر الاجنبية التي بسط العرب سلطانهم عليها، وذهب عثمان بن عفان ضحية الحزبية السياسية ، وهلك الامام بيد خصومه السياسيين من الخوارج [1] فهلك بذلك ثلاثة من اربعة خلفاء قتلاً في فترة من الزمن لا تزيد عن ثلاثين عاماً ، وهذا شيء يدل على اضطراب العواطف السياسية حقاً في هذا الزمن من نشوء الدولة الاسلامية .

وقد ساعد على وصول المجرمين الى غرضهم ، ديموقراطية الدولة وبساطة حياة الخلفاء، الذين لم يأخذوا باسباب الحيطة والحذر كما كان يفعل آل ساسان والقياصرة في عهدهم ، فكان واحدهم يسير في الاسواق دون ما حرس ولا حاجب ، وكانوا يختلطون بالناس اختلاطاً جعل وصول القتلة الى اغراضهم سهلاً هيناً واذا استثنينا عثمان بن عثمان ، وقد قتل رضي الله عنه بعد حصار دام اربعين يوماً وبعد ان اقتحم عليه الثوار منزله ، فان هناك ظاهرة غريبة في هذا القتل السياسي لم يفطن لها المؤرخون السابقون وهي تنفيذ القتلة لخططهم في غلس الليل وعند صلاة الصبح ، فقد طعن ابو لؤلؤة الفاروق عند صلاة الصبح في مسجد رسول الله بالمدينة ، واختار

---

(١) يقول الطبري ان ابن ملجم لما جاء الكوفة لقتل الامام ، اقام بين اخوانه الخوارج ، ولم يفض اليهم برأيه وغرضه وما ينويه ويعتزمه ، مما يدل على ان هذا العمل كان تدبيراً شخصياً مقصوراً على القاتل وزميليه .

الخوارج الثلاثة لانفاذ خطتهم من قتل الامام ومعاوية وعمرو بن العاص الساعة نفسها، وهو ما يدعونا للتساؤل عما اذا كان مرد هذا الاختيار من الخوارج اعتقادهم ان الناس يكونون في مثل هـذه الساعة اقل حذراً ، واكثر اطمئناناً ، وابعد عن الحيطة ، ام انهم ذهبوا يساوقون ابا لؤلؤة في اختياره، ويعدون نجاحه سابقة حسنة وفألاً ميموناً ؟؟ (١)

---

(١) ليست تستقيم عندنا مسألة المؤامرة كما ترويها اكثر المصادر، خصوصاً ما يتعلق منها باتفاق الخوارج الثلاثة على مقتل علي ومعاوية وعمرو في يوم واحد وساعة واحدة وذلك لاسباب عديدة منها :

١ — ما رواه ابن الاثير والطبري وغيرهما من المؤلفين الاقدمين من انه لما توفي امير المؤمنين علي بن ابي طالب احضر الحسن بن علي، ابن ملجم اليه ، فلما مثل امامه قال ابن ملجم للحسن :

— هل لك في خصلة ؟ اني والله قد اعطيت الله عهداً ، ان لا اعاهد عهداً الا وفيت به ، واني عاهدت الله عند الحطيم ان اقتل علياً ومعاوية ، او اموت دونهما ، فان شئت خليت بيني وبينه فلك الله علي ان لم اقتله ، ثم بقيت ان آتيك حتى اضع يدي في يدك .

فقال له الحسن : لا والله حتى تعاين النار ، ثم قدمه فقتله .

وهذه الرواية التي ايدها كثير من المؤرخين تدلنا على ان ابن ملجم يكن على اتفاق مع غيره ، وانه كان يعمل وحده ، ولولا ذلك لعلم ان هناك شخصاً يحاول قتل معاوية، فلا لزوم للتعهد بقتله ، وهذا عمل صار الاتفاق على ان يقوم بانفاذه غيره .

وشيء آخر ايضاً اذا كان الاتفاق قد صار بين الثلاثة المتآمرين على قتل علي ومعاوية وعمرو فلماذا لم يذكر ابن ملجم عمرواً ايضاً ؟ واكتفى

وهي ظاهرة تدعو الى التفكير، وتثير في الكاتب الذي يؤرخ لهذا العصر كثيراً من الذكريات المؤلمة .

---

بذكر معاوية فقط ؟

ولعلنا نكون اقرب الى الحقيقة اذا قلنا ان مقتل الامام كان حادثاً وحده ، وان الاعتداآت على معاوية وعمرو بن العاص ، قد وقعت قبل هذا التاريخ ، وفي بعض المصادر التاريخية ما يؤيد هذه النظرية خصوصاً ما يتعلق منها بمعاوية الذي وقع عليه اعتداء بين معركة صفين ومؤتمر اذرح .

والواقع ان ما نبسطنا في تبيانه عن المؤامرة هو ما اجمع المؤرخون على تأييده في جميع مصنفاتهم ، واذا نحن درجنا على غرارهم فيما يتصل بهذه الوقائع التفصيلية التي لا تأثير لها في مجرى الحوادث السياسية فلاننا بين عاملين عامل الايمان بها كلها ، او الايمان ببعضها وانكار البعض الآخر ، والعامل الثاني اقرب الى الحقيقة ، والصق بالواقع .

— ٢ —

# معاوية بن ابي سفيان

٤٠ — ٦٠ — هـ — ٦٦٠ — ٦٨٠ م

دان المسلمون للدولة الاموية التي انشأها معاوية بن ابي سفيان ثمانين عاماً ( ٤٠ — ١٣٢ هـ ) افضت الاقدار الى معاوية منها بعشرين عاماً كاملة غير منقوصة ، وهو عهد ليس كبيراً في اعمار وحياة الممالك .

وينتسب معاوية الى ابي سفيان بن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان امية ممن اتصل بهم الشرف في الجاهلية فساوق بشرفه ورفيع مقامه عمه هاشم بن عبد مناف ، فلا عجب اذا تنافس البطنان جاهلية واسلاما ، وكان لتنافسهما هذا الأثر البليغ في مصاير الدولة الاسلامية .

وكان امية تاجراً كثير المال والعيال ، فكان له عشرة ولد امتازوا بالشرف والسيادة ، منهم حرب وسفيان وابو سفيان ، وكان حرب بن امية قائد قريش يوم الفجار ، كما قاد ابو سفيان قريشاً في حروبها ضد الرسول وهو صاحب العير التي وقعت من اجلها موقعة بدر الكبرى ، وكان رئيس الجيش النافر لحماية قريش عتبة بن

ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لامه ، فكان ابوه صاحب العير ، وجده صاحب النفير ، وبها يضرب المثل فيقال للخامل : « لا في العير ولا في النفير » .

رأى معاوية النور بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة ، واسلم يوم الفتح هو وابوه واخوه يزيد وامه هند ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة ، واتخذه رسول الله كاتباً للوحي تقديراً لمركز والده وتألفاً منه لعائلته ، كما امر رسول الله منادياً ينادي بمكة يوم الفتح « من اغمد سيفه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن » وهو شرف عظيم لم ينله احد ، واذا كان رسول الله قد رمى من ورائه الى حقن الدماء وتآلف الصفوف وتوحيد الكلمة ، فقد رأى بنو امية في ذلك توطيداً لشرفهم ، وتقديراً من رسول الله لرفيع مقامهم ، بحيث سوى بينهم وبين بني هاشم عائلته ، فلما حصلت المشادة بينهم وبين علي بن ابي طالب لم ير معاوية وهو كبيرهم ، عظيم امر في المطالبة بالخلافة والسعي لها ، خصوصاً انه قد انتقل من سيادة في الجاهلية الى سيادة في الاسلام .

والواقع اننا امام ظاهرة خطيرة تتعلق بموقف بني امية من الخلافة عامة وموقف معاوية منها خاصة ، فقد ولى الصديق يزيد ابن ابي سفيان قيادة احد الجيوش الاربعة التي انفذها لغزو الشام ، وولاه الفاروق دمشق لما تم فتحها ، كما اثبت اخاه معاوية بعد

وفاته على دمشق وما حولها ، فلما آل الامر الى عثمان بن عفان اطلق يده في الشام كلها من مشرقها الى مغربها ، وظل شأن معاوية في تعاظم وتقدم حتى مقتل عثمان وقيام علي ، فاستقل معاوية بالشام وامتنع عن مبايعة علي ، متهماً اياه بالهوادة في امر عثمان وايوائه قتلته في جيشه ، وبايعه اهل الشام على المطالبة بدم عثمان ومحاربة علي ، فوقعت الحروب والفتن التي تبسطنا في وصفها في كتابنا : « علي بن ابي طالب » وشرحنا الاسباب التي مكنت لمعاوية ، ومزقت صفوف امير المؤمنين ، وهي لا تعدو هذا التفكك الذي كان يلم بجيش الامام ، ويتصل بادارته فلا يمكنه من المضي في خططه للقضاء على هذا الانقسام الذي تملك المملكة الاسلامية في عهده ، بالشدة التي كانت ضرورية جداً في تلك الظروف [١]

---

(١) كان علي يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه ، رغم ما كان يمتاز به من الفضائل الكثيرة ، فقد كان نشيطاً ، ذكياً ، بعيد النظر ، بطلا في الحرب ، مشيراً حكيما وفياً ، شريف الخصومة ، ويمكن مقارنته « بمونت روز وبيارد » من حيث الشجاعة والنجدة ، ولكن كانت تنقصه الحنكة السياسية ، وعدم التردد في اختيار الوسائل ايا كانت لتثبيت مركزه ، ومن ثم تغلب عليه منافسوه الذين عرفوا اول الامر ان الحرب خدعة ، والذين كانوا لا يتورعون عن ارتكاب اي جرم يبلغ بهم الى الغاية ويكفل لهم النصر .

نيكلسون « تاريخ العرب الادبي ص ١٩١

## — ٣ —

# الاحزاب الثلاثة

بايع امير المؤمنين علي بن ابي طالب اربعون الفاً على الموت، واقسموا عليه ان يمضي بهم الى عدوه، فما يبرحون به حتى يقضي الله امره، ويصدق وعده، فبينما هو يتحفز للسير بهم الى الشام قتل رضي الله عنه، فبايع الناس ولده الحسن، فبلغه مسير معاوية في اهل الشام اليه، فتجهز بجيشه وسار عن الكوفة الى لقاء معاوية، فنزل المدائن، وكان قيس بن سعد بن عبادة على مقدمته في اثني عشر الفاً فنادى مناد في الجيش: ان قيس بن سعد قتل فانفروا، فنفروا بسرداق الحسن فنهبوا متاعه، حتى نازعوه بساطاً كان تحته، فعلم عندئذ ان لا قبل له بمقاومة معاوية في مثل هذا الجند المضطرب المتثاقل المختلف، فعقد معه صلحاً نزل له فيه عن حقه في الخلافة على ان يكون الامر بعد وفاة معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من احبوا، فتم لمعاوية ما كان يطمع له من سلطان الخلافة، ودخل الكوفة فبايعه الناس [1] وكتب الحسن الى قيس بن عبادة وكان لا يزال في اثني عشر الفاً من جنده يأمره بالدخول في طاعة معاوية ففعل بعد ان اشترط على

---

(١) الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة ٤١ ﻫ

معاوية الامان له ولشيعة علي ما اصابوا من دماء واموال ، ورحل الحسن بعد ذلك الى المدينة ، ولزم منزله فيها حتى قبضه الله اليه .

***

لقد كانت الامة الاسلامية في هذا العهد تضطرب في ثلاثة احزاب : شيعة بني امية من اهل الشام وغيرها من الامصار ، وكان يدعي هؤلاء ان الخلافة في قريش وبنو امية اولى بها ، فهم سادة قريش في الجاهلية ، وسادة في الاسلام .

وشيعة علي بن ابي طالب ، وكانت تنزل العراق واقلها في بعض الامصار الاسلامية ، وهذه كانت ترى في الخلافة رأياً غير رأي بني امية ، وتذهب الى ان علياً احق بها من سواه ، وان اولاده هم الخلفاء من بعده .

وكان الخوارج ثالث هذه الشيع ، وكانوا ينكرون مذهب الفريقين ولا يرون كبير امر في استحلال دمائهم ومقاتلتهم لخروجهم على الدين في زعمهم ، وكانوا يمثلون الديموقراطية او الراديكالية الاوربية الحاضرة ، من حيث انهم كانوا يعتقدون بان الخلافة حق لكل مسلم ما دام كفوءاً لها ، لا فرق في ذلك بين قرشي وغير قرشي .

والواقع ان المتتبع لتاريخ الاسلام في اول نشوء الدولة الاسلامية لا يستطيع ان ينكر ما كانت تضطرب به هذه الاحزاب من

اختلاف في حدود المذهب الذي يدعون "
على حق فيه ، فالمعالم لم تكن واضحة
سهلة المعالم واضحة المسالك
للفتنة وزادتها "

« انا اول الملوك » [1]

ومن المؤكد ان نيكلسون انما يصور في قوله هذا مذهب الشيعة والخوارج ، لان اهل الشام وغير الشام لم يكونوا من هذا الرأي ، ولا استمعنا الى ان احداً منهم ذهب هذا المذهب ،فليس من الحق والحالة هذه ان ننكر هذه الظاهرة الخطيرة ، ولولاها ما قام لامية ملك ، ولا استطار سلطان ، ولا فشت عصبية قوية ثابتة .



(١) تاريخ اليعقوبي

## — ٤ —

# لا حكم الا لله

نشأ الخوارج في الحرب ، وعاشوا على اطراف السيوف ، وخلقت فكرتهم معركة ، وقضت عليها موقعة ، و كذلك قضى الخوارج زهاء اربعين عاماً تتجاذبهم السيوف ، وتتخاطفهم الزحوف حتى جاء قضاء الله ، وكان القوم ما كانوا .

وقد بسطنا في تاريخ الامام كيف طلب معاوية تحكيم كتاب الله لما احس بتمزق جنده في معركة صفين ، و كيف وقف اصحاب علي رضي الله عنه من هذا الطلب بين عاملين : أيقبلون هذا التحكيم ، لانهم يحاربون لاعلاء كلمة الله وقد دعوا اليها ؟ أم يرفضونه لانه خدعة حربية لجأ اليها معاوية لما احس بتخاذل جنده ؟ و كيف قبلوا التحكيم بعد حوار واخذ ورد ، وما كان من نتائج هذا التحكيم ومصايره .

والواقع ان التحكيم كان خطأ حربياً فادحا ، اذ مكن معاوية من تنظيم صفوفه ، وتعزيز سلاحه ، وامكنه النجاة من معركة كان فيها صاحب الحظ العاثر ، والسيف الفاشل ، وكان الى ذلك

من اكبر العوامل التي مزقت صفوف جند الامام وحرمته النصر وادت الى مقتله رضي الله عنه .

ولما تقرر مبدأ التحكيم انكر قوم من جند علي — اكثرهم من قبيلة تميم — ان يحكم احد في كتاب الله، ورأوا التحكيم خطأ، لان حكم الله في الامر واضح لا سبيل الى انكاره، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من المحاربين ايهما المحق، وليس يصح هذا الشك، لانهم وقتلاهم انما حاربوا وهم مؤمنون، ان الحق في جانبهم وقد صاغ هذه الفكرة احدهم في هذه الجملة التي ذهبت مثلاً، وهي ( لا حكم الا الله ) واصبحت في القليلات من الاعوام الطائفة وعلدها الخفاق .

ولقد كان بين الامام والخوار[illegible]

اخبارها في تار[illegible] ١٧١

الاول ، فلما غير وبدل ولم يسر سيرة ابي بكر وعمر ، واتى بما اتى من احداث وجب عزله ، واقروا بصحة خلافة علي ، ولكنهم قالوا انه اخطأ في التحكيم وحكموا بكفره لما قبل به ، وطعنوا في اصحاب الجمل طلحة والزبير وعائشة ؛ كما حكموا بكفر ابي موسى الاشعري وعمرو بن العاص .

ووضعوا نظرية للخلافة خلاصتها : ان الخلافة يجب ان تكون باختيار حر من المسلمين، واذا اختير احد اليها فليس يصح ان يتنازل او يقبل بالتحكيم ، وليس بضروري ان يكون الخليفة قرشياً ، بل يصح ان يكون من قريش ومن سواها ولو كان عبداً ، وعلى الخليفه ان يخضع خضوعاً تاماً لما امر الله وإلا وجب عزله .

ولهذا امروا عليهم من اختاروه منهم، وسموا عبد الله بن وهب الراسي امير المؤمنين ولم يكن قرشياً ، فخالفوا بذلك الشيعة التي لا ترى احق بالخلافة من آل رسول الله ، واهل السنة القائلين بان الخلافة في قريش ، وهذه النظرية هي التي دعتهم الى الخروج على خلفاء بني امية ، وبني العباس لاعتقادهم انهم جارون غير عادلين ، وان شروط الخلافة لا تنطبق عليهم .

وكانت اغراض الخوارج في اول ام...

نراهم في عهد عبد الملك .

نافع بن الازرق ــ واهم ما قرره الخوارج في ذلك ، ان العمل باوامر الدين ــ من صلاة وصيام وصدق وعدل ــ جزء من الايمان، وليس الايمان الاعتقاد وحده ، فمن اعتقد ان « لا آله إلا الله ، وان محمداً رسول الله » ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو كافر .

ولم يكن الخوارج وحدة ، ولا كانوا كتلة واحدة ، بل كانت الطبعية العربية البدوية واضحة فيهم ، فقد كانوا يختلفون كثيراً ، ويضربون بعضهم بعضاً ، ولو اتحدوا لكانوا قوة في منتهى الخطورة على الدولة الاموية ، وقد بلغ عددهم نحواً من عشرين فرقة، ولكنهم اتفقوا في مجموعهم على ما بسطناه من نظرياتهم في اول هذا الفصل ، ولكنهم كانوا يخالفون بعضهم بعضاً في التفصيلات ، ومن اشهر فرقهم الازارقة اتباع نافع بن الازرق ، وكان من اكبر فقهائهم ، وقد كفر جميع المسلمين ما عداهم ، وقال: انه لا يحل لاصحابه المؤمنين ان يجيبوا احداً من غيرهم الى الصلاة اذا دعاهم اليها ، ولا ان يأكلوا من ذبائحهم ، ولا ان يتزوجوا منهم، ولا يتوارث الخارجي وغيره ، وهم مثل كفار العرب وعبدة الاوثان لا يقبل منهم الا الاسلام او السيف .

ومن فرقهم النجدات ، اتباع نجدة بن عامر ، واهم تعاليمه التي انفرد بها : ان المخطيء بعد ان يجتهد معذور ، وان الدين

امران : معرفة الله ومعرفة رسوله، وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله الى ان تقوم عليهم الحجة ، ومن اداه اجتهاده الى استحلال حرام او تحريم حلال فهو معذور ، وعظم جريمة الكذب على الزناء وشرب الخمر .

ومن اشهر فرقهم الاباضية، نسبة الى رئيسهم عبد الله بن اباض التيمي ، ولا يزال له اتباع في المغرب حتى اليوم ، وهؤلاء لم يتغالوا في الحكم على مخالفيهم كالازارقة ، بل قالوا : يحل التزواج منهم ، ويتوارث الخارجي وغيره ، ونزعتهم اميل الى المسالمة ، فلا يقاتلون احداً الا بعد الدعوة واقامة الحجة واعلان القتال ، وقد ظهر عبد الله بن اباض في النصف الثاني من القرن الاول للهجرة ، وعاش اتباعه في اكثر احوالهم مسالمين للدولة .

وفرقة اخرى « الصفرية » اتباع زياد بن الاصفر ، وهم لا يختلفون كثيراً في تعاليمهم عن الازارقة ، وهذه الفرق الاربع هي اشهر فرق الخوارج واكثرها دوراناً في الكتب .

***

وكان اكثر من اعتنق مبدأ الخوارج من العرب البدو ، وانضم اليهم بعض الموالي اعجاباً برأيهم الديموقراطي في الخلافة ، ولكن هؤلاء قليل بينهم ، لان الخوارج كانوا عرباً بدواً يحتقرون

سواهم ويزدرون غيرهم .

والناظر في تاريخهم يتبين له فيهم مميزات واضحة اهمها : التشدد في العبادة والانهاك فيها ، يصفهم الشهرستاني بانهم اهل صوم وصلاة ، ويصفهم المبرد « بانهم في جميع اصنافهم يبرؤن من الكاذب ومن ذي المعصية الظاهرة »

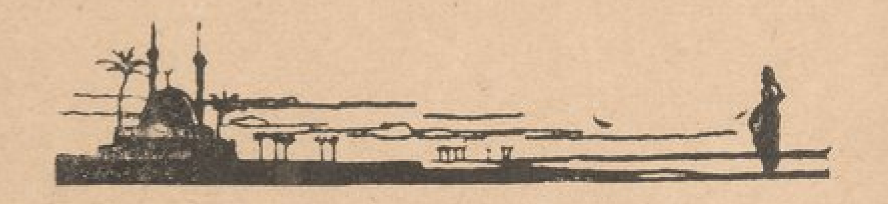
ولقد ضرب بهم المثل في التقوى والاغراق في العبادة ، ولعل خير ما قيل فيهم ما قاله ابو حمزة الخارجي في وصف اصحابه: « فنظر الله اليهم في جوف الليل منحنية اصلابهم على اجزاء القرآن كلما مرّ احدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً اليها ، واذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كان زفير جهنم بين اذنيه ، قد اكلت الارض ركبهم وايديهم وانوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى اذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد اشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فاسرعت اليه سباع الارض ، وانحطت اليه طير السماء ، فكم من عين في منقار طير ، طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها ، طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله » .

ومع شدة تقواهم هذه وخوفهم من الله ، كانوا يغرقون في عقيدتهم ، فيعدون مرتكب الكبيرة ــ واحياناً الصغيرة ــ كافراً وخرجوا على أئمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبونها ، وتشدد كثير منهم في النظر الى غيرهم من المسلمين فعدوهم كفاراً ، بل كانوا يعاملونهم اشد من معاملة الكفار .. ، حتى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني ، بل لم يرضوا من مخالفيهم ان يقولوا : « ان علياً اخطأ في التحكيم ، وعثمان اخطأ فيما احدث ، بل لا بد ان يقر بكفرهما وكفر من ناصرهما ، ولعل هذا التشدد الذي ليس له مبرر لا في القرآن ولا في السنة ، واقدامهم على قتل معارضيهم هو اكبر ما شوه حركتهم وقضى عليها .

وكانوا شجعاناً ما رأى خصومهم انضى منهم سلاحاً ، واجرأ هجوماً ، وامتن طعنا ، وفي التاريخ امثلة كثيرة عن جرأتهم وبسالتهم وقوتهم ، فقد ارسل ابن زياد اسلم بن زرعة في الفين لمحاربة فرقة من الخوارج ، فهزمه ابو بلال الخارجي في اربعين من اصحابه ، وابلى نساؤهم معهم في القتال خير بلاء حتى لقد كانت المرأة تساوق الرجل في جرأته وهجومه وسرعته ، واقدامه على الموت .

وهذه الصفات ، الشدة في الدين ، والاخلاص للعقيدة

والشجاعة النادرة ، يضاف اليها العربية الخالصة ، هي التي جعلت للخوارج ادباً خاصاً يمتاز بالقوة شعراً ونثراً ، تخير للفظ ، وقوة في السبك ، وفصاحة في الاسلوب ، وما وصف ابو حمزة لاصحابه في هذا الفصل ، الا قطرة من فيض ، ونقطة من بحر .



## — ٥ —

# الشيعة

نشأت فكرة التشيع في آل البيت ، ومن حولهم من الانصار الذين ذهبوا يعتقدون ان علياً رضي الله عنه ، أولى من غيره واحق من سواه بالخلافة بعد رسول الله .

وكانت هذه الدعوة كثيرة البساطة في اول الامر ، ومرد ذلك انه لم يكن من نص في الاسلام على الخليفة ، وقد ترك الامر لرأي المسلمين فيها ، فالانصار اداهم رأيهم الى انهم اولى بها ، والمهاجرون كذلك ، وذهب انصار علي الى ان الخلافة ميراث ادبي ، ولو كان الرسول يورث في ماله لكان اولى به قرابته ، وكذلك الحال في الارث الادبي

وزاد في اختلاف وجهات النظر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشر ولو اشارة غامضة صامتة الى من يريد ان يكون خليفته إلا اذا كان امره الى الصديق بالصلاة بالناس في مرضه ظاهرة لها معناها واغراضها .

وزادت فكرة التشيع تطوراً مع الايام فقالت شيعة علي : ان الامامة

ليست من المصالح العامة التي تفرض الى نظر الامة ،ويتعين القائم بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبي اغفالها ولا تفويضها الى الامة بل يجب تعيين الامام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر ، وان علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها لا يؤيدها رجال السنة ،ويروجون لضعفها بكلام لا يهمنا التعليق عليه في هذا الفصل لتشعب الروايات واختلاف المصادر .

ومن هنا نشأت فكرة الوصية ولقب علي بالوصي ، يريدون ان رسول الله اوصى لعلي بالخلافة من بعده ، فعلي ليس الامام بطريق الانتخاب ، بل بطريق النص من رسول الله ، وعلي اوصى لمن بعده ، وراجت هذه الفكرة بين الشيعة فاصبحت جزءاً من عقيدتهم .

وعرض الشيعة للصحابة كما عرض الخوارج ، واستعرضوا الصحابة جميعهم ، فكان منهم المغالي والمقتصد ، فمنهم من اقتصر على القول بان ابا بكر وعمر وعثمان ومن شايعهم اخطأوا اذ رضوا ان يكونوا خلفاء مع علمهم بفضل علي وانه خير منهم ، ومنهم من تغالى فكفرهم وكفر من شايعهم ، ولكن الاعتدال رائد الاكثرية والذين يكفرون الصحابة الاولين خصوصاً ابا بكر وعمر لا يجدون

من يناصرهم ويقول قولهم ، خصوصاً والامام نفسه قد رضي ببيعتهما وصلى خلفهما ولم ينكر عليهما تقصيراً في دين ولا دنيا .

وقد اتفقت تعاليم الخوارج والشيعة على ان خلفاء بني امية مغتصبون ظالمون، فاشتركوا في مناهضتهم ، ولكن الخوارج كانوا ظاهرين في حروبهم، غلبت عليهم الطبيعة البدوية في الصراحة فاكثرهم لا يقول بالتقية ، اما الشيعة فكانوا يحاربون جهراً اذا امكن الجهر ، وسراً اذا لم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً .

وقال اكثرهم بالتقية [1] فكانوا بذلك اشد على بني امية ، وهم ادعى الى الحذر منهم ، فبثوا العيون والارصاد على الشيعة واضطهدوهم اضطهاداً شنيعاً — كما كان يفعل معاوية وخلفاؤه من بعده — وقتلوا الحسين في ( كربلاء ) ثم تتبعوا اهل البيت يستذلونهم ويمتهنونهم ويقطعون ايديهم وارجلهم على الظنة، وكل من عرف بالتشيع لهم سجنوه او نهبوا ماله ، واشتد بهم الامر في

---

(١) يراد بالتقية المداراة ، كأن يحافظ الشخص على نفسه او عرضه او ماله بالتظاهر بعقيدة او عمل لا يعتقد بصحته ، فمن كان على دين او مذهب ثم لم يستطع ان يظهر دينه او مذهبه فيتظاهر بغيره فذلك ( تقية ) واما الخوارج فكانوا ينكرون ذلك ، ولا يرون ( تقية ) في رفع كلمة الدين والدفاع عن حق مشروع .

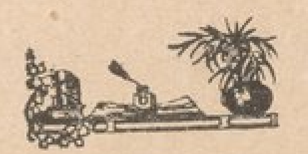
ايام عبيد الله بن زياد قاتل الحسين ، فكان يأخذ منهم من يريد ومن يشاء .

***

وقد ذهب الاستاذ ( ولهوسن ) الى ان العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية اكثر مما نبعت من الفارسية ، مستدلاً بان مؤسسها عبد الله بن سباء يهودي الاصل ، ولكن الاستاذ ( دوزي ) يميل الى « ان اساسها فارسي فالعرب تدين بالحرية الديموقراطية والفرس يدينون بالملكية ، وبالوراثة في البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة ، وقد مات محمد ولم يترك ولداً ، فاولى الناس بعده ابن عمه علي بن ابي طالب ، فمن اخذ الخلافة منه كأبي بكر وعمر وعثمان والامويين فقد اغتصبها من مستحقها ، وقد اعتاد الفرس ان ينظروا الى الملك نظرة فيها معنى آلهي ، فنظروا هذا النظر نفسه الى علي وذريته ، وقالوا ان طاعة الامام اول واجب ، وان اطاعته اطاعة الله » .

والذي يراه صاحب فجر الاسلام : « ان التشيع لعلي بدأ قبل دخول الفرس في الاسلام ولكن بمعنى ساذج ، وهو ان علياً اولى من غيره من وجهتين : كفاءته الشخصية وقرابته للنبي ، والعرب من قديم تفخر بالرياسة وبيت الرياسة ، وهذا الحزب نشأ بعد وفاة الرسول ، ونما بمرور الزمان وبالمطاعن في عثمان ، ولكن

هذا التشيع اخذ صبغة جديدة بدخول العناصر الاخرى في الاسلام من يهودية ونصرانية ومجوسية، وكل قوم من هؤلاء كانوا يصبغون التشيع بصبغة دينهم، فاليهود تصبغ التشيع باليهودية، والنصارى بالنصرانية، ولما كان اكبر عنصر دخل في الاسلام هو العنصر الفارسي فقد كان اكبر الأثر في التشيع انما هو للفرس »



## - ٦ -

# الخوارج ومعاوية

كان معاوية لما استتب له الامر سنة ٤١ للهجرة بين خطرين : خطر الخوارج وخطر الشيعة ، وكان الخوارج اشد من الشيعة خطراً وامضى سيوفاً ، واسرع الى الثورة ، واسبق الى العراك والكفاح .

وكان من الصعب حمل الخوارج على الاستكانة الى الامر الواقع والقبول بالنظام القائم ، وكان من العبث ردهم الى جماعة المسلمين بالحجة والاقناع ، وهم يؤمنون بان من لم يشاطرهم رأيهم من المسلمين كافر ، يحل لهم دمه ونهب ماله ، فكان على معاوية والحالة هذه ان يتكلف معهم سبيل الشدة والعنف ، وان يقاومهم بسلاحهم ، ويناجزهم في كل موطن وسبيل .

وكان معاوية ابغض الى الخوارج من علي لما كانوا يعتقدونه فيه من العبث باموال المسلمين ، واتخاذه القصور والحرس والحجاب وما الى ذلك من مظاهر الملك التي اتخذها عن البلاط البيزنطي ، وغير ذلك من الامور التي استحدثها في الاسلام ، والتي دعت اليها ضرورة الزمن وتطور الاحوال ، وهو الى ذلك لم ينل الخلافة عن

اجماع من المسلمين ورضى منهم ، وانما استلبها استلابا ، واستولى عليها قسراً .

فلما استتب الامر لمعاوية سنة ٤١ هـ عول الخوارج على قتاله وكان على رأسهم فروة بن نوفل الاشجعي الذي اعتزل علياً والحسن في خمسماية من الخوارج بشهرزور — من اعمال فارس — فلما بايع الحسن معاوية قال فروة لاصحابه :

— جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا الى معاوية فجاهدوه

فخرج هو واصحابه الى الكوفة حيث كان معاوية ، فارسل اليهم جيشاً من اهل الشام فلما هزمه الخوارج قال معاوية لاهل الكوفة :

— لا امان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم

فخرج اهل الكوفة الى الخوارج يقاتلونهم فقالت لهم الخوارج :

— ويلكم ما تبغون ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا نقاتله فان اصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم ، وان اصابنا كنتم قد كفيتونا .

فابى اهل الكوفة الا القتال حتى يغلبوهم .

وكان بين الخوارج كبير من كبارهم يدعى حوثرة الاسدي بعث اليه معاوية بابيه لعله يستميله الى الدخول في الطاعة ووقف القتال ، فدعاه ابوه الى الرجوع فابى ، فاداره فصمم ، فقال له :

— يابني ، اجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن .

فقال له : يا أبت ، انا والله الى طعنة نافذة اتقلب فيها على كعوب الرمح اشوق مني الى ابني .

فدعاه الى المبارزة فابى ، ثم حمل على القوم ، فحمل عليه رجل من اهل الكوفة فقتله وانهزم الخوارج .

***

وقد اشرنا في فصل سابق الى ان الخوارج لو كانوا جماعة واحدة وصفاً واحداً ، لأثخنوا في عدوهم ، وغلبوه على امره ، لما كانوا ينعمون به من جرأة وتضحية وبسالة وصبر على الكروب ، وبراعة في الحرب والمكيدة ، ولكنهم كانوا جماعات مختلفة ، لا ينضوون تحت لواء واحد ولا يحاربون جبهة واحدة ، فلما انهزم جماعة فروة بن نوفل ، وقتل حوثرة ، قام فريق آخر منهم بزعامة حيان بن ظبيان السلمي وتذاكروا اخوانهم بالنهروان ، وما لاقوه في سبيل الدفاع عن مبادئهم .

وكان حيان من الذين قاتلوا علياً يوم النهروان وقد عفا عنه علي عندما اصابه جرح في هذه الموقعة فلما برىء خرج هو وجماعته الى الري واقاموا بها حتى بلغهم قتل علي ، فحث حيان من معه من الانصار على المسير الى الكوفة ومناجزة اعدائهم ووقف يخطبهم ويقول :

« فانصرفوا بنا رحمكم الله الى مصرنا فلنأت اخواننا فلندعهم الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والى جهاد الاحزاب ، فانه لا عذر لنا في القعود ، وولاتنا ظلمة وسنة الهدي متروكة ، وثارنا الذين قتلوا اخواننا في المجالس آمنون »

وقد كان لهذه الخطبة اثرها ، فسار الخوارج الى الكوفة ودخلوها ، وكان عليها المغيرة بن شعبة ، وكان داهية يحاول الوصول الى اغراضه بالمخاتلة والحيلة ، ويكره اراقة الدماء فلم يعرض للخوارج الذين اجتمعوا في ذلك الوقت في دار حيان حيث ولوا امرهم المستورد بن علفة التيمي ، وتواعدوا على الخروج في غرة شعبان سنة ٤٣ هجرية .

ويظهر لنا ان المغيرة كره ان يعرض لهم اول الامر ، وفضل ان يبدأوه بالعدوان ، فتكون له الحجة عليهم ، فلما اخبره كبير شرطته باجتماعهم في منزل حيان واتعادهم على الخروج في سنة ٤٣ ، خشي ان هو سكت عنهم ان يعرف معاوية بالامر ، فيستبدل به شخصاً آخر ، فبعث كبير شرطته الى منزل حيان ، فاتاه بمن وجد منهم ، وكانوا نحو عشرين شخصاً فسجنهم ، وسمع اخوانهم بالخبر فحذروا وخرج المستورد فنزل داراً بالحيرة ، وبعث الى اخوانه ، فكانوا يختلفون اليه فيها ويتجهزون ، وعلم المغيرة بما يعدونه ويعملون له ، فجمع رؤساء القبائل وخطب فيهم وانذرهم ان لا يخرج احد

من الخوارج في حي من احياء العرب بالكوفة ، إلا قتله واباد الحي وجعلهم نكالاً لغيرهم، فخرجت الرؤساء الى عشائرهم وناشدوهم الله والاسلام ألا دلوهم على من يريد الفتنة او مفارقة الجماعة، فتثاقل الناس عن الخروج مع الخوارج ، فلم يخرج مع المستورد غير ثلاثمائة نفر ، ساروا الى ( الصراة ) [1] قرب بغداد ، ومنها الى ( بهرسير ) ولما علم المغيرة بمسيرهم جمع لقتالهم جيشاً من الشيعة يربو على الثلاثة آلاف ، وامر عليه معقل بن قيس الرياحي من كبار الشيعة ، فادرك الخوارج بالمذار [2] ثم بديلمايا ، وهي قرية من قرى استان بهرسير ، الى جانب دجلة على مقربة من ساباط ، حيث قتلهم عن آخرهم .

---

(١) من نواحي سواد بغداد بقرب المدائن

(٢) بين واسط والبصرة .

## - ٧ -

# زياد في البصرة

ادرك معاوية من خطر الخوارج ما لم يكن ليجهله مثله ، وعلم انه ان تركهم وشأنهم يؤلبون الناس عليه ، ويروجون لكرهه ويدعون المسلمين لمناهضة سياسته وصحابته ، فقد لا يكون اليوم الذي يصعب عليه فيه وقفهم عند حدهم ، وقطع دابر اخبارهم طويلا ، واطلق بصره في رجاله واعوانه ، فلم ير بينهم اليق من زياد بن ابيه يوليه البصرة ، ويعهد اليه بمحق الفساد من اساسه ، وقتل الفتنة في مهدها ، وكان زياد من ولاة علي بن ابي طالب وكان يلي بلاد فارس من قبله ، فلما قتل رضي الله عنه اعتصم في ولايته فبعث اليه معاوية المغيرة بن شعبة فما زال به حتى ثناه عن رأيه وكان هذا النجاح من المغيرة من اعظم ما افضى به الى معاوية من خدمة ، اذ كان زياد شوكة في جنب معاوية ، وكان الى ذلك قوي الشكيمة عبقري الادارة بحيث كان من الصعب على معاوية ان يصل اليه او يوفق الى اخضاعه الا بعد قتال عنيف لا يدري احد من يكون الرابح الظافر في مثل هذا الرهان الخطير .

وقد ولد زياد في السنة الاولى للهجرة على ما يقول الرواة من

امة للحارث بن كلدة الثقفي ، ولم يكن معروف الاب ، ونشأ نشأة اسلامية خالصة ، ولم يبلغ الشباب حتى ظهرت فيه خصال امتازت بها قبيلة ثقيف في الاسلام ، منها ذكاء القلب ، وسعة الحيلة وحزم الامور ، وحدة اللسان وشدته وميل الى العنف بلغ الطغيان في كثير من الاحيان .

وعمل زياد مع ابي موسى الاشعري حين تولى البصرة للفاروق فظهر ذكاؤه وتفوقه واعجب به الناس ، واعجب به عمر نفسه ، ولعله اشفق من دهائه واقدامه فحال بينه وبين العمل السياسي المتصل ، ثم استعان به علي ايام خلافته على اخماد ثورة فاحسن البلاء ووفق الى ما اراد ، ووفى لعلي حتى اذا قتل ، لم يزل معاوية يجد حتى استماله اليه واستلحقه بنسبه بعد ان شهد ناس من المسلمين انه ابن ابي سفيان ، وارسل اليه معاوية كتاب الامان ، فسار اليه وسلمه ما لديه من خراج فارس ويقدر بمليون دينار وكان معاوية يعرف شدته وحسن ادارته وبعد نظره ، فرأى من حسن السياسة ان يستلحقه بابي سفيان الذي اعترف ببنوته في حياته على ما قيل اكتساباً له ، وتألفاً لقلبه ، ثم ارسله والياً على البصرة وخراسان وسجستان ثم جمع له الهند والبحرين وعمان

***

وكان العراق في هذه الفترة من الزمن يضطرب بالثورة ويعج

بالخوارج ، والواقع ان من اهم الاسباب التي مكنت لمعاوية في الملك وبسطت له في السلطان ، ما وفق اليه من حسن اختيار الرجال والولاة ، فقد كان ينعم بثلاثة ولاة ، لا نبالغ اذا قلنا انهم كانوا من احسن الولاة في عهدهم ، ونحن في ذلك لا نعرض لاخلاقهم ، ولا لهذا البطش الذي كانوا يتكلفونه في سياستهم واغراضهم ، وانما نريد الاشارة فقط الى هذه الناحية الادارية التي كانت ظاهرة البراعة في خطراتهم واعمالهم ، في الامصار التي عهد اليهم معاوية اقرار الامن فيها ، والقضاء على الثورة الفاشيه في مواطنها .

وظهرت خصال زياد كلها ناضجة حين تولى العراق ، فاشتد على المعارضة العنيفة ، حتى اضطرها الى الهدوء والاذعان ، ولم يتردد في اتخاذ الطرق التي رآها مؤدية الى ذلك ، وبطش بالغواة والمفسدين حتى اقر الامن في نصابه ، وثبت في العراق نظاماً كان قد فقده منذ حين ، وقد حفظت له خطبة تسمى البتراء لم يبتدئها بحمد الله كما يفعل الخطباء عادة ، القاها حين قدم البصرة والياً من قبل معاوية ، فوجم لها الناس ، فمنهم من اذعن لها خائفاً ، ومنهم من اثنى متملقاً ، ومنهم من حاول الانكار ، ولكن السياسة العملية لزياد لم تلبث ان بينت للناس انه جاد غير هازل فيما اعلن من نذير .

* *

وكان عمرو بن العاص يحكم مصر حتى توفاه الله اليه سنة

٤٣ للهجرة [١] وليس عمرو بالشيء الهين ، ولا هو بالرجل العادي فقد عرف رسول الله ذكاءه وعبقريته فعهد اليه بعمل في عهده ، وادرك الفاروق منه ذلك فبعثه الى مصر فافتتحها في جند قليل ثم كانت له اليد الطولى في توطيد الحكم لمعاوية ولولا دهاءه في معركة صفين لهلك جند الشام ، وتمزق امر معاوية .

واما المغيرة حاكم الكوفة فكان يضرب به المثل في الدهاء والمكيدة ، وكان زياد يفوق الرجلين قوة وبطشاً وشدة مراس ، كما كان ابرع شخصية تولت الولاية في عهد الامويين .

وكما وفق معاوية في المغيرة وزياد ، وفق عبد الملك بن مروان في الحجاج ، والثلاثة من الطائف ، حتى ليصح القول ان هذه المدينة الماتعة ، وهذا المصيف البديع ، خير من يخرج للمملكة الاسلامية رجال الادارة وافذاذ الشخصيات .



(١) وله من العمر ٧٣ سنة .

— ٨ —

# خطبة زياد

قدم زياد البصرة في ربيع الاول من سنة ٤٥ للهجرة ، فمشى الى المسجد وصعد الى المنبر وقال يخطب الناس :

«الحمد لله على افضاله واحسانه ونسأله مزيداً من نعمه ، اللهم كما زدتنا نعماً فالهمنا شكراً على نعمك علينا ، اما بعد فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، ما يأتي سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام فيثب فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأن لم تسمعوا نبي الله ، ولم تقرأوا كتاب الله ، ولم تعلموا ما اعد الله من الثواب الكريم لاهل طاعته ، والعذاب الاليم لاهل معصيته ، اتكونون كمن طرقت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون انكم احدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا اليه ، هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل ، ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ، تعطفون على المختلس ، كل امرىء منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يخشى معادا ، ما انتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء فلم

يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرم الاسلام
حرام علي الطعام والشراب حتى اسويها بالارض هدماً واحراقا ،
اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به اوله ، لين في
غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، واني لاقسم بالله لآخذن
الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم
بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول : انج سعد ، فقد هلك
سعيد ، او تستقيم لي قناتكم ، ان كذبة المنبر مشهودة ، فاذا تعلقتم
علي بكذبة قلت : حلت لكم معصيتي ، من يبيت منكم فانا ضامن
لما ذهب له ، اياي ودلج الليل ، فاني لا اوتي بمدلج الا سفكت
دمه ، وقد اجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع اليكم ،
واياي ودعوى الجاهلية ، فاني لا اجد احداً ادعى بها الا قطعت
لسانه وقد احدثتم احداثاً لم تكن ، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة
فمن غرق يوماً غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب
بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته به حياً ، فكفوا عني
ايديكم والسنتكم ، اكفف عنكم لساني ويدي ، واياي لا يظهر من
احد منكم خلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه ، وقد كانت بيني
وبين اقوام إحن فجعلت ذلك خلف اذني ، وتحت قدمي ، فمن كان
منكم محسناً فليزدد احساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن اساءته
اني لو علمت ان احدكم قد قتله السل من بغضي ، لم اكشف له

قناعاً ولم اهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فاذا فعل لم اناظره، فاستأنفوا اموركم واعينوا على انفسكم، فرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس ، ايها الناس إنا اصبحنا لكم ساسة وعنكم زادة، نسوسكم بسلطان الله، الذي اعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم ، واعلموا اني مهما قصرت عنه فاني لا اقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو اتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء ،ولا مجمراً لكم بعثا ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون ، و كهفكم الذي اليه تأوون،ومتى تصلحوا يصلحوا،ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع انه لو استجيب لكم لكان شراً لكم ، اسأل الله ان يعين كلا على كل ، فاذا رأيتموني انفذ فيكم الامر فانفذوه على اذلاله ، وان لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امريء منكم ان يكون من صرعاي»

***

وظهرت شخصية زياد القوية الحاسرة العنيفة في هذه الخطبة التي تعد من آيات البيان العربي ، فوجم لها الناس ، وذهل

السامعون ، والقي في روع بعضهم انه مازح هازل ، اذ كيف يأخذ الصالح بالطالح ، والمقيم بالثائر .

وقام اليه ابو بلال مرداس بن اذيه وهو من الخوارج وقال :

ـ انبأ الله بغير ماقلت ، قال الله تعالى : وابراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر اخرى ، وان ليس للانسان الا ما سعى ، فاوعدنا الله خيراً مما اوعدتنا يازياد .

فقال زياد : انا لا نجد الى ما تريد انت واصحابك سبيلا ، حتى تخوض اليها الدماء .

واستعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، واجّل الناس حتى يبلغ الخبر الكوفة ، وعاد اليه وصول الخبر ، فكان يؤخر العشاء الآخرة ثم يصلي ، فيأمر رجلاً ان يقرأ سورة البقرة او مثلها يرتل القرآن ، فاذا فرغ امهل بقدر ما يرى انساناً يبلغ اقصى البصرة ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، فلا يرى انساناً الا قتله ، فاخذ ذات ليلة اعرابياً فاتى به زياداً فقال :

ـ هل سمعت النداء ؟

فقال : لا والله ! قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتها الى موضع ، واقمت لاصبح ولا علم لي بما كان من الامير .

فقال : اظنك والله صادقاً ولكن في قتلك صلاح الامة .

ثم امر به فضربت عنقه ، وكان زياد اول من شدد امر

السلطان واكد الملك لمعاوية ، وجرد سيفه ، واخذ بالظنة وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس خوفاً شديداً حتى آمن بعضهم بعضاً ، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل او المرأة فلا يعرض له احد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ، ولا يغلق احد بابه ، كما انه ادر العطاء ، وبنى مدينة الرزق ، وجعل الشرط اربعة آلاف ، وقيل له ان السبيل مخوفة فقال :

— لا اعاني شيئاً وراء المصر حتى اصلح المصر ، فان غلبني فغيره اشد غلبة منه .

فلما ضبط المصر واصلحه تكلف ما وراء ذلك فاحكمه .

***

ولا بد لنا في ختام هذا الفصل من كلمة نعلق بها على هذه الخطبة التي تساوق التصريحات الوزارية الحاضرة من حيث اباتنها عن اغراض الحكم الجديد ومذاهبه ، ووجوه المنافع والاصلاح فيه ، فقد بدأ زياد خطبته بانكار ما كان عليه اهل البصرة من معصية لله وفسوق عن الدين ، وتجاوز لامر السلطان ، ثم اعلن بان امور المسلمين لن تصلح في آخر ايامهم إلا بما صلحت به في اولها ، من لين في غير ضعف ، وشدة في غير حيف ، على نحو ما كان يفعله عمر ، ثم اعلن ان اهل العراق قد استحدثوا آثاماً لم تكن وانه سيحدث عقوبات تلائم هذه الآثام ، واعلن هذه العقوبات

فاذا هي مجاوزة لما عرف المسلمون من حدود الله وعقوباته « من غرق قوماً غرقناه ، ومن احرق قوماً احرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيا » وفي هـذه الخطبة جعل القتل عقوبة لمن ظهر في الطريق بعـد مضي ساعة معينة من الليل ، وقطع اللسان عقوبة لمن دعا بدعوى الجاهلية ، ثم الغى ما كان بينه وبين الناس من عداوة وضغن ، وطلب اليهم ان يستأنفوا امورهم مطيعين ناصحين ، ثم اثبت حق بني امية في السلطان وطلب الى الناس ان يذعنوا له في غير حق ولا ضغينة ، فذلك انفع لهم واجدى عليهم من طاعة مدخولة لا تستقيم عليها الامور .

وهي خطبة اشبه بالاحكام العرفية منها بالخطب العادية الحكومية ، كما انها تدل على سعة حيلة ، وذكاء وقاد ، وقوة وجبروت .



## - ٩ -

# ادارة زياد

اعلن زياد في العراق الاحكام العرفية ، وسار في الناس سيرة الحاكم الشديد، لا ترده عن البطش رحمة ولا شفقة ، حين يظن ان في الرحمة الثورة ، وفي الشفقة الاختلاف .

واعلن الناس انه يتناسى ما سبق للقوم من اخطاء وماتكلفوه من سوء نحو الدولة ونحو نفسه اذا احسنوا السيرة ولم يروجوا لثورة ، ولا ايدوا معصية ، وقال : انه ينوي افتتاح عهد جديد يغاث فيه الناس ويستريح السلطان ، وكان في ذلك كما وصفه ابو العباس المبرد في الكامل :

« يقتل المعلن ، ويستصلح المسر ، ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة » .

ارسل يوماً احد اعوانه ليأتيه برجل يرى رأي الخوارج ، فجاء به اليه ، فلما مثل امامه ، ذكر الله زياد ، ثم صلى على نبيه ، ثم ذكر ابا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال : قعدت عني ، فانكرت ذلك .

فذكر الخارجي رسول الله ثم ابا بكر وعمر بخير، ولم يذكر عثمان، ثم اقبل على زياد فقال: انك قد قلت قولاً فصدق بفعلك وكان من قولك من قعد عنا لم نهجه فقعدت.

فامر له بصلة وكسوة، وكان زياد يبعث الى الجماعة — من الذين يعرف معارضتهم له، ونقدهم سياسته — فيقول:

— ما احسب الذي يمنعكم عن اتياني إلا الوجلة.(١)

فيقولون: اجل.

فيحملهم ويقول: غشوني الآن واسمروا عندي.

يحاول تألفهم والوقوف على آرائهم من طرف خفي، والبعد جفاء، والعامل مضطر الى ان يعلم البواطن والظواهر، ولا ميدان لالتقاط الفوائد الا في المجالس الخاصة. قال عمر بن عبد العزيز: «قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع الذرة، وحاطهم كما تحوط الام البرة، واصلح العراق باهل الشام، وترك اهل الشام في شامهم، وجبى العراق مائة الف الف وثمانية عشر الف الف»

***

كان زياد اذا ولى رجلاً قال له: خذ عهدك وسر الى عملك واعلم انك مصروف رأس سنتك، وانك تصير الى اربع خلال

---

(١) المشي.

فاختر لنفسك : اذا وجدناك اميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتك من موتنا امانتك، وان وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك واحسنا على خيانتك ادبك فاوجعنا ظهرك، واثقلنا عزمك ، وان جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين ، وان وجدناك اميناً قوياً زدنا في عملك ورفعنا لك ذكرك، واكثرنا مالك واوطأنا[1] عقبك .

وكان زياد يقول :

« استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ،فوالله لا يأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا اوجعته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكات به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا انتقمت له منه »

قال زياد لحاجبه : كيف تأذن للناس ؟

قال : على البيوتات ، ثم على الانساب ، ثم على الآداب .

قال : فمن تؤخر ؟

قال : من لا يعبأ الله بهم .

قال : ومن هم ؟

---

(١) يقال فلان موطأ العقب اي كثير الاتباع .

قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف و كسوة الصيف في الشتاء .

وقال لحاجبه : وليتك حجابتي وعزلتك عن اربع : هذا المنادي الى الله في الصلاح والفلاح لا توقفه عني ، ولا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لا تحجبه ، فشر ما جاء به ، ولو كان خيراً ما جاء في تلك الساعة ، ورسول صاحب الثغر ، فان ابطأ ساعة فسد عمل سنة ، وصاحب الطعام فان الطعام اذا اعيد تسخينه فسد .

قال العتبي : كان في مجلس زياد مكتوب : « الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، المحسن يجازى باحسانه ، والمسيء يعاقب باساءته ، الاعطيات في ايامها ، لا احتجاب من طارق ولا صاحب ثغر » .

وكان زياد يؤثر الاعمال على الاقوال لعلمه بانها تنادي على نفسها ، فقد بنى بالبصرة احياء ودوراً ومساجد وحفر انهاراً وترعاً وكل ما بني فيها او صنع نسب الى غيره [1]

***

وزياد في الواقع لم يزل بالمداراة من يوم كان اميراً على فارس وهي تضرم ناراً حتى عادوا الى ما كانوا عليه من الطاعة

---

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه

والاستقامة ، لم يقف موقفاً للحرب ، وكان اهل فارس يقولون ما رأينا سيرة اشبه بسيرة كسرى انوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي ، ولما قدم فارس بعث الى رؤسائها فوعد من نصره ، ومناه وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة واقامت طائفة ، فقتل بعضهم بعضا ، وصفت له فارس فلم يبق فيها جمعاً ولا حرباً .

وقدم زياد العراق وهي جمرة تشتعل فسل احقادهم وداوى ادواءهم ، وهو اول من عرف العرفاء ، ودعا النقراء ، وحصل الدواوين ، ومشى بين يديه بالعمد ووضع الكراسي ، وعمل المقصورة ، وربع الارباع بالكوفة ، وخمس الاخماس بالبصرة ، واعطى في يوم واحد للمقاتلة والذرية من اهل البصرة والكوفة وبلغ بالمقاتلة من اهل الكوفة ستين الفا ، ومقاتلة البصرة ثمانين الفا

***

وبلغ زياداً عن رجل يكنى ابا الخير من اهل البأس والخبرة انه يرى رأى الخوارج ، فدعاه فولاه جند نيسابور وما يليها ورزقه اربعة آلاف درهم في الشهر ، وجعل عمالته على كل سنة مائة الف ، فكان ابو الخير يقول :

ـ ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين اظهر الجماعة .

فلم يزل والياً حتى انكر منه زياد شيئاً فتنكر له وحبسه ، فلم يخرج من حبسه حتى مات .

وكان زياد فيه حمرة ' وفي عينيه انكسار ' ابيض اللحية مخروطها ' بسيط الملابس ' ظاهر الشدة بادي الجبروت .



— ١٠ —

# زياد والمغيرة

تمكن زياد بشدته وجبروته من حمل العراق على الاطمئنان الى نوع من الهدوء والطمأنينة لم يكن له به عهد ، فاستتب الامن وتوطدت الطمأنينة ، واستطاع ان يضرب على ايدي الخوارج ، فاخذهم بالقوة واوقع في قلوبهم الرعب ، فكفوا على قدر ، وحذا حذوه المغيرة في الكوفة ، فامن بذلك معاوية جانب العراق ، واطمأن الى سلامة ملكه وثبات دولته .

***

واما المغيرة بن شعبة والي الكوفة فكانت سياسته ارفق والين ، وكان يحب العافية ، ولا يعرض لخصوم الدولة من الخوارج والشيعة بخير ولا شر ما تكلفوا السكون ، واستناموا الى النقد فحسب ، وكان يأتيه بعضهم فيقول له : ان فلاناً يرى رأي الشيعة وفلاناً يرى رأي الخوارج ، فيقول : « قضى الله ان لا يزالوا مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون » فامنه الناس وكانت الخوارج في عهده يلقى بعضهم بعضا ويتذاكرون مكان اخوانهم بالنهروان وغير النهروان ، فلا يحرك المغيرة ساكناً اول

الامر ، فلما ازدادوا اجتماعاً، واغرقوا في المؤامرات، ارسل كبير شرطته فاوقف بعضهم كما فصلنا ذلك في فصل سابق ، ثم ارسل اليهم جيشاً هزمهم وقتل رؤوسهم ، فدانت له الكوفة، واستوثق له الامر ، واقام عاملاً لمعاوية سبع سنين وشهراً ، وهو على حاله من حسن السيرة، وحب العافية ، والتحايل لغرضه ، والمكر في في ادارته ، وكان يقول : لا احب ان ابتدئ اهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم ، فيسعدوا بذلك واشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ، ويذل يوم القيامة المغيرة ، ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم ، وحامد حليمهم ، وواعظ سفيههم، حتى يفرق بيني وبينهم الموت ، وسيذكرونني اذا ما جربوا غيري ، وتوفي المغيرة سنة ٥١ للهجرة ، واذا وزن بزياد يرجح عليه من حيث انه اصلح المصر بالاقل من الشدة والعنف .

***

ولما توفي المغيرة اضاف معاوية لزياد ولاية الكوفة ، فصار والي المصرين . وهو اول من جمعا له ، فسار الى الكوفة ، فلما وصلها خطب اهلها ، فحصب وهو على المنبر، فجلس حتى سكتوا ثم دعا قوماً من خاصته ، فاخذوا ابواب المسجد، ثم امر بكرسي فوضع له على باب المسجد، فدعاهم اربعة يحلفون : ما منا من حصبك، فمن حلف خلاه ، ومن لم يحلف حبسه ، حتى صار الى ثلاثين فقطع

ايديهم ، واتخذ زياد المقصورة حين حصب ، وكان يقيم بالبصرة ستة اشهر وبالكوفة مثلها .

***

وكانت روح التشيع قد خمدت في نفوس اهل الكوفة بعد تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ومغادرته الكوفة الى المدينة ، ولكن السياسة التي سار عليها معاوية من شتم علي بن ابي طالب واهل بيته على المنابر قد اثارت حنق الشيعيين خصوصاً لما كلف معاوية المغيرة والي الكوفة يلعن علي ومدح عثمان على منبرها ، واخذ المغيرة يلعن علياً كلما قام خطيباً ، وبينما هو يخطب ذات مرة قام حجر بن عدي وقال :

— ان من تذمون وتعيرون لاحق بالفضل ، وان من تزكون وتطرون اولى بالذم .

فقال له المغيرة : ويحك يا حجر اتق السلطان وغضبته وسطوته فان غضب السلطان احياناً مما يهلك امثالك

وظل حجر على سياسته العدائية ضد بني امية حتى مات المغيرة وولي الكوفة بعده زياد بن ابيه ، فاتبع سنة من كان قبله من سب علي وامتداح عثمان ، فزاد هذا في حنق حجر ومن كان معه واخذوا يعقدون الاجتماعات يسبون فيها معاوية وينتقدون سياسته واعماله واعمال عماله ، فلما نمى خبر هذه الاجتماعات الى زياد غادر البصرة

الى الكوفة وصعد المنبر وقال :

« اما بعد فان غب البغي والغي وخيم ' ان هؤلاء جموا فاشروا ' وامنوني فاجترؤا على الله ، لئن لم تستقيموا لاداوينكم بدوائكم ، ولست بشيء ان لم ادع الكوفة من حجر ' وادعه نكالاً لمن بعده ، ويل امك ياحجر سقط العشاء بك على سرحان »

وارسل الى حجر يدعوه وهو بالمسجد فابى حجر ان يجيء ، فامر زياد صاحب شرطته ان يبعث اليه جماعة ففعل ، فسبهم اصحاب حجر ، فجمع زياد اهل الكوفة وقال :

ـ تشجون بيد وتأسون باخرى ، ابدانكم معي وقلوبكم مع حجر الاحمق ، هذا والله من رجسكم ، والله لتظهرن لي براءتكم او لآتيكم بقوم اقيم بهم اودكم .

فقالوا : معاذ الله ان يكون لنا رأي إلا طاعتك وما فيه رضاك .

قال : فليقم كل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته واهله ، ففعلوا واقاموا اكثر اصحابه عنه ، فقال زياد لصاحب شرطته :

ـ انطلق الى حجر فأتني به ، فان ابى فشدوا عليهم بالسيوف حتى تأتون به وبمن معه .

فجاؤا بهم اليه ، فامر بهم الى السجن ، ثم طلب بقية اصحابه فهرب بعضهم واخذ بعضهم وعدتهم اثنا عشر رجلا ، واحضر

شهوداً شهدوا على حجر : انه جمع الجموع واظهر شتم الخليفة ، ودعا الى حرب امير المؤمنين ، واظهر ان هذا الامر لا يصلح الا في آل ابي طالب ، وان هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس اصحابه وعلى مثل رأيه .

وكان الشهود على ذلك كثيرين من اهل الكوفة ، فكتب زياد شهاداتهم وارسل بها وبحجر واصحابه الى معاوية ، فسير بهم حتى انتهوا الى مرج عذرا عند دمشق ، فامر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك ستة ، تبرأوا من علي رضي الله عنه .

وبذلك ركدت ريح التشيع في الكوفة والعراق ، خصوصاً وان الشيعة لم يحملوا السلاح كالخوارج ، ولا كانوا قد اخذوا يتكلفون الحرب ويعدون العدة للخصومة الثائرة ، والعداوة القاهرة .

***

واذا نحن حمدنا لزياد حسن ادارته من حيث استتباب الامن في عهده وتقدم التجارة في ولايته ، فليس يسعنا ان نمر بهذا الطغيان الذي غمر عصره مر الطريق ، فقد اغرق في القتل اغراقاً لم يكن له ما يبرره ، واسرف في سياسة القمع اسرافاً اساء الى سمعته واضر ضرراً بالغاً بسياسة امية نفسها ، فخلق لها الاعداء واثار حولها الاحقاد فلما زالت ولايته ، وهلك معاوية ، رفعت الثورة رأسها واشتدت

الفتن في كل مكان وسبيل .

ويظهر لنا ان زياداً تأثر كثيراً بنظام البلاط الفارسي في الفترة التي قضاها في فارس ، فلما ارسله معاوية حاكماً على البصرة حمل معه الواناً من نظم هذا البلاط ، فكان اذا مشى سار من خلفه ومن قدامه عدد ليس بقليل من الاتباع والانصار ، وكان يقف امام بابه مالا يقل عن خمسمائة من الجنود والفرسان ، وكان في الواقع اعظم عمال معاوية شأناً واعظمهم خطراً واكثرهم جرأة ، فكان يحكم الشرق كله من الهند الى الخليج العجمي ، ويمتد سلطانه على كل العراق من مشرقه الى مغربه ، ولكنه لم يكن قانعاً بكل هذا السلطان والامجاد ، فطلب من معاوية ان يضم اليه الحجاز ايضاً ، ولاندري ما كان جواب معاوية ، ولكن الذي نعلمه ان عمره لم يطل بعد هذا الطلب وان الله اخذه اليه في سنة ٥٣ للهجرة وله من العمر ثمانية وخمسين سنة .

***

ولما توفي زياد ولى معاوية ابنه عبد الله بن زياد مكانه في سنة ٥٥ للهجرة ، فاشتد على الخوارج شدة لم تظهر مثلها من ابيه ، فقتل منهم سنة ٥٨ جماعة كثيرة جداً وفي الحرب جماعة اخرى ، وممن قتل عروة بن ادية اخو ابي بلال بن مرداس بن ادية ، وكان سبب ذلك ان ابن زياد خرج في رهان له ، فلما جلس ينتظر

الخيل ، اجتمع الناس وفيهم عروة بن ادية ، فاقبل على ابن زياد فقال :

ــ خمس كن في الامم قبلنا فقد صرن فينا : « اتبنون بكل ربع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين »

وذكر خصلتين اخريين ، فلما سمع ذلك ابن زياد ظن انه لم يجترىء عليه إلا ومعه جماعة من اصحابه ، فقام وركب وترك رهانه واضمر لعروة الشر ، فهرب عروة من وجهه ، فطلبه ابن زياد في الكوفة حتى عثر عليه ، فامر به فقطعت يداه ورجلاه ، ثم دعا به فقال :

ــ كيف ترى ؟

قال : ارى انك افسدت دنياي وافسدت آخرتك.

فقتله ، وارسل الى ابنته فقتلها ، وخرج اخوه مرداس في اربعين رجلاً بالاهواز ، فبعث اليهم ابن زياد جيشاً عدته الفان وعليهم ابن حصن التميمي فهزمه الخوارج ، فارسل اليهم ابن زياد جيشاً آخر بقيادة ــ عباد بن اخضر ــ في ثلاثة آلاف او اربعة آلاف فلحقهم ( بتوج ) وهي قرية في بلاد فارس ، فنشبت المعركة

بين الفريقين في يوم جمعة ، حتى اذا جاء وقت صلاة الجمعة ، سأل الخوارج عباداً — قائد الجيش — ان يوادعهم حتى يصلوا، فوادعهم واسرع هو وجيشه في الصلاة — والخوارج مطمئنون — فمال عليهم هو ومن معه فقتلوهم جميعا ، واتى برؤوسهم الى ابن زياد فصلبت في اسواق الكوفة .

***

ولبث عباد زمناً مغتبطاً بما كان منه من قتل الخوارج الى ان ائتمر عليه جماعة منهم وفتكوا به ، فلما بلغ ابن زياد ذلك امر خليفته على البصرة ان يتتبع الخوارج فتتبعهم وسجنهم الى ان قدم ابن زياد فقتلهم جميعاً في سنة ٦١ للهجرة .

ولم يزل عبيد الله بن زياد والياً على البصرة حتى توفي معاوية .

***

وكان الوالي في مصر عمرو بن العاص كما قدمنا ، ولم يزل والياً عليها حتى توفي سنة ٤٣ للهجرة ، فولى معاوية بدله ابنه ، ثم عزله وولى غيره .

واما الحجاز فكانت ولاته دائماً من بني امية ، وكانت ولاية المدينة بين مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص يتداولانها ،

وكان ولاة المدينة في الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج ، فان معاوية لم يحج بنفسه إلا مرتين ، سنة ٤٤ وسنة ٥٥ ، للهجرة .

ومن المؤكد ان سياسة معاوية مع اهل الحجاز كانت غيرها مع اهل العراق ، فقد بعث الى العراق باعظم عماله جرأة وبطشاً وسفك دماء ، وترك لهم الخيرة في اختيار ما يرونه مناسباً لاقرار الامن في هذه البلاد الغاضبة الناقمة ، ولم تكن الحجاز اقل نقمة وغضباً من العراق ، وان كانت في الواقع اقل ثورة وشغباً .

وشيء آخر ايضاً وهو ان معاوية لم يكن يعهد بالولاية على الحجاز الا لرجال من قريش ، ولانسباله من امية ، ولعله اراد بذلك ان لا يبعث الى الحجازيين بحكام لا يألفونهم ، وولاة لا يعرفونهم ، وهي سياسة فيها الكثير من الدهاء والسياسة حقاً .



## - ١١ -

# الفتوح في ايام معاوية

ليس في عهد معاوية ما يستلفت النظر من تبسط الفتوح وكثرة الزحوف ، إلا ما كان من محاولة العرب اقتحام القسطنطينية واحتلال قبرص ورودس من جزر البحر المتوسط .

واما في الشرق فلم يكن على حدود فارس إلا فتوح قليلة وارجاع الناكثين من اهل تلك البلاد الى الطاعة ، وقد غزا عبد الله بن سوار العبدي ، الذي كان اميراً على ثغر (السند) القيقان [١] مرتين ، وفي المرة الثانية استعان القيقان ببعض انصارهم فقتلوه ، وغزا المهلب بن ابي صفرة الازدي ثغر السند فوصل الى لاهور [٢] وهما بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ، ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعاً .

والواقع ان همة المسلمين كانت موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم اكثر منها نحو غيرهما من الجهات ، وكان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان ، احدهما قسطنطين الثاني بن هرقل

---

(١) من بلاد الهند مما يلي خراسان

(٢) مدينة بكابل من بلاد الافغان .

الثاني الذي ولي الملك من سنة ٦٤١ الى سنة ٦٦٨ ، وقسطنطين الرابع بوغاناتس الذي ولي من سنة ٦٦٨ الى سنة ٦٨٥ ، وكان الروم يغيرون على البلاد الاسلامية في كل فترة واخرى لما بينهما من الجوار ، فرتب معاوية الغزو اليها براً وبحراً ، اما البحر فكانت الاساطيل في زمنه كثيرة لاهتمامه بامرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان ، حتى بلغت اساطيله الفاً وسبعمئة سفينة كاملة العدد والعدد ، وصار يسيرها في البحر فترجع غانمة ، وافتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس ، افتتحها جنادة بن ابي امية الازدي ، ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم ، وكانوا اشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم ، وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم .

واما في البر فرتب الشواتي والصوائف ، والشواتي جمع شاتية ، وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء ، والطوائف جمع طائفة وهي الجيش الذي يغزو في الصيف ، فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من العدو .

وكان العرب منذ فتحوا الشام يفكرون في فتح القسطنطينية ، لانها كانت لذلك العهد عاصمة النصرانية ، ولو فتحها المسلمون اول عهدهم بالفتوح والتوسع ، لغلبوا على شمالي اوربا دون ما شك ولا

ريب ، ولتبدل وجه التاريخ، ولكن المسلمين لم يفكروا بالقسطنطينية إلا سنة ٦٥٣ ميلادية ، وفي ايام عثمان بن عفان ، فجهزوا اسطولاً عظيماً في ميناء طرابلس الشام عقدوا له لبسر بن ابي ارطأة وارسلوه في البحر يمخر عبابه نحو عاصمة الرومان ، فتلاقى الاسطول العربي باسطول الروم فهزمه وشتته ، وكان هذا في ايام ولاية معاوية على الشام ، إلا ان الاسطول العربي في هذه الغزاة لم يبلغ القسطنطينية .

وفي سنة ٤٤ للهجرة ـ ٦٦٤ ميلادية ـ في خلافة معاوية ، غزا الاسطول العربي القسطنطينية بقيادة بسر ابن ابي ارطأة ايضاً ، ووصل اليها وفاقاً لرواية الطبري ، ثم ان فضالة بن عبيد غزا خليقدونية ـ ماجاور البوسفور من آسيا الصغرى ـ حيث وافاه يزيد بن معاوية [1]

ويقول مؤرخو العرب ان معاوية جهز في سنة ٤٨ جيشاً لغزو القسطنطينية براً وبحراً ، وكان على الجيش سفيان بن عوف ، وامر ابنه يزيد ان يغزو معهم وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وابو ايوب الانصاري وغيرهم .

ومشى هذا الجيش نحو عاصمة البيزانطيين مخترقاً طريق

---

(١) جعل المؤرخ تيوفان هذه الغزاة سنة ٦٦٦ ميلادية ، وذهب غيره الى ان السنة التي حاصر فيها يزيد بن معاوية القسطنطينية كانت سنة ٥١ للهجرة ، او ٦٧٢ ميلادية .

الاناضول ، حتى وصل قبالتها ، وكان بسر بن ابي ارطأة ماسكاً البحر ، وقد انتشرت السفن الحربية العربية على طول ساحل بحر مرمرة ، وهاجم العرب القسطنطينية بين شهر نيسان وايلول ، ولم يتمكنوا من فتحها ، فلما جاء الشتاء انكمشوا الى جهة ( فيزقيا ) في الشمال الغربي من آسيا الصغرى .

وفي الربيع عادوا الى حصار العاصمة ، ويقال انهم لم ينصرفوا عن القسطنطينية الا بعد حروب استمرت سبع سنوات ، وكان اعظم عامل في فشلهم النار الاغريقية التي احرقت جانباً من الاسطول ، كما انه غرق جانب آخر منه اثناء رجوعهم .

والواقع ان ما لدينا من التفاصيل عن هذه الوقائع الحربية التي دامت سبع سنوات ، لا يساعدنا على دراسة اطوار الحصار دراسة مفصلة واضحة ، والمصادر العربية لا تعرض لمثل هذه التفاصيل في كثير ولا قليل ، ومثل ذلك المصادر الرومانية ، ولكن المرجح ان الجيش العربي الذي جاء من البر بدأ الحصار سنة ٦٦٧ ، وان الاسطول العربي اقلع عن القسطنطينية سنة ٦٧٣ ، ومؤرخو العرب يجهلون غزاة القسطنطينية هذه من سنة ٤٨ الى سنة ٥٢ للهجرة ، ومنهم من يمد ذلك الى سنة ٥٥

وفي ايام الحصار توفي ابو ايوب الانصاري خالد بن زيد ، وهو الذي نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالمدينة يوم

الهجرة وقد دفن خارج المدينة قريباً من سور القسطنطينية ، ولا يزال قبره بها يزار للآن وعليه مسجد ، كان يتوج فيه خلفاء آل عثمان .

***

ومن الفتوح العظيمة ما كان في افريقية سنة ٥٥ ولى معاوية عقبة بن نافع ، وكان مقيماً ببرقة وذويلة منذ فتحها ايام عمرو بن العاص ، وله في تلك البلاد جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير اليه عشرة آلاف ، فدخل افريقية وانضاف اليه من اسلم من البربر ، فكثر جمعه ووضع السيف في اهل البلاد ، لانهم كانوا اذا دخل عليهم امير اطاعوا واظهر بعضهم الاسلام ، فاذا عاد عنهم الامير نكثوا وارتد من اسلم ، ثم ارتأى ان يتخذ مدينة يكون فيها عسكر المسلمين واهلهم واموالهم ، ليأمنوا من ثورة تكون من اهل البلاد فقصد موضع القيروان ، وامر ببناء المدينة فبنيت ، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم ، وتم امرها سنة ٥٥ للهجرة ، وسكنها الناس ، وكان في اثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا ، فدخل كثير من البربر في الاسلام ، واتسعت خطة المسلمين ، وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، وامنوا واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها .

وحصل بعد ذلك ان معاوية ولى على مصر وافريقية مسلمة

ابن مخلد فاستعمل على افريقية مولى له ، يقال له ابو المهاجر ، فقدم افريقية واساء عزل عقبة واستخف به ، وهذا من الخلل الفادح الذي يئن منه المسلمون الى الآن ، فان الخلف من الولاة كان بدلاً من الاستعانة بآراء سلفه وتجاربه ، يجتهد في تصغيره وتحقيره ، حتى ينطفيء اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ، ولا يدري انه بهذا يقتطع من نفسه قوة كان يمكن الانتفاع بها

وكذلك السلف يجتهد ان يخفي عن خلفه كل ما يمكن ان ينفعه ، ليرتبك في ادارته حتى يكون للاول الاسم وحده ، والامة التي تنعم بمثل هذا الفكر العقيم لا يمكن ان تنجح ولا ان تسود .



# — ١٢ —

# المردة في لبنان

دفعت بيزانطة ثمناً بالغاً لتساهلها في تحصين الحدود السورية — كما يقول مؤرخو الفرنجة — فلما وفق العرب الى اخضاع سورية واخذوا يقتحمون الحدود البيزانطية في آسيا الصغرى ، رأت بيزانطة نظراً لصعوبة تحصين حدودها ان تؤلف فرقاً متحركة تنقض على جنود الاسلام في مختلف الجهات ، وتثيرها عليهم حرب عصابات بحيث تفل من حدتهم ، وتفضي الى قوادهم بضرورة القبول للامر الواقع ، وعدم مهاجمة الحدود الرومانية لتتمكن بيزانطة من تنظيم شؤونها وتجديد سلاحها ، بعد الانكسارات التي المت بها في ميادين اليرموك واجنادين وفلسطين ومصر .

وقد ذهب ابن خلدون في مقدمته الى القول بان العرب لم يتمكنوا من تثبيت اقدامهم ، إلا في الارض السهلة واما في اعالي الجبال ، فان نفوذهم كان ضعيفاً ، بحيث كان سكان الجبال في ايام الخلفاء ينعمون بكثير من استقلالهم وحرياتهم لا تعرض لهم الحاميات العربية بكثير ولا قليل .

والواقع ان الزحف العربي وقف في انطاكية من جهة الشمال،

ولم يوفق الى اقتحام جبال طوروس التي ظلت في مدة الخلفاء الامويين الحد الطبيعي بين سوريا الاسلامية وآسيا الصغرى اليونانية .

وكان يعيش في بقعة من هذا الجبل جماعة ينعمون برغبة اكيدة في السلب والغزو [1] ، كما يحبون المحافظة على استقلالهم وحرياتهم ، بحيث اضطرت رومه نفسها الى احترام هذه الرغبة الاستقلالية فلم تعرض لهذه الجماعة ببطش ولا نكر ، خصوصاً وقد كان من الصعب عليها ان تفرض ارادتها عليهم إلا بالقوة والسيف ، وهو ما ابت رومة التوسل به ، واكتفت بقبول المردة [2] ــ وهو اسم هذه الجماعة ــ بالخضوع ولو بالاسم الى الامبراطور ، وظل هذا شأنهم حتى عهد الامبراطورية البيزانطية ، فاحترمت هذه بدورها استقلالهم ، واكتفت بان تأخذ منهم بعض الجنود والمتطوعة .

فلما كانت الفتوحات العربية ، وتراجع هرقل فاشلاً منكسراً الى القسطنطينية واخذ العرب يهددون آسيا الصغرى بعد ان احتلوا انطاكية ، رأى المردة او الجراجمة ان يصالحوا العرب ، اكتساباً

---

(١) ميشال السوري ج ٢ ص ٤٥٥

(٢) وكان العرب يسمونهم الجراجمة نسبة الى بلدة ( جرجوما ) التي كانوا يسكنونها ، وكانت اكبر مدنهم .

لعطفهم ، ووقع الصلح حتماً ، وكلف العرب الجراجمة بان يكونوا حراساً لجبال طوروس مع فصائل من الجيش العربي ، ويكون لهم الحق حين يشاركون القوات الاسلاميـة في الحرب والغزو، بالاستفادة من غنائم الحرب .

ومن المؤكد ان الجراجمة او المردة في هذا الحين كانوا بدواً على الفطرة، لا يعرفون من الوان الحياة الا الغزو والحرب وماوراء الغزو والحرب من مال وغنائم ، وهو ما حمل بعض مؤرخي المسيحية على انتقادهم والنقمة عليهم ، لتأييدهم الاسلام ، في حروبه ضـد الامبراطورية البيزانطية الارثوذكسية المسيحية ، ولكن الجراجمة لم يكونوا ارثوذكساً ، بل كانوا من الكاثوليك على ما يظهر لنا ، خصوصاً اذا اخذنا بعين الاعتبار ان حفدتهم هم الموارنة التابعين لرومة العظمى .

ولم يخلص الجراجمة للمسلمين كل الاخلاص ، فقد كانوا يساعدونهم حيناً ، وينتقضون عليهم حيناً آخر مساوقين بيزانطـة ، في سياستها الملتوية المضطربة [1]

***

فلما قام العرب بمهاجمة القسطنطينية براً وبحراً كما ذكرنا ذلك في فصل سابق، رأت بيزانطة من حسن السياسة ان تؤلب الجراجمة

---

(١) البلاذري .

على العرب ، وتدفعهم الى غزو الحدود الاسلامية ، بحيث تشغل العرب ولو قليلاً عنها ، وبحيث يكون بطوقها ان تعزز سلاحها ، وترتب امورها ، وقد تمكن الامبراطور قسطنطين الرابع حوالي سنة ٦٦٦ ميلادية ، من اكتساب عطف الجراجمة ، فاستمالهم اليه بشتى الوعود ، كما امدهم ببعض الفرق البيزانطية ، وامرهم بمهاجمة السواحل الاسلامية ، فصدعوا بالامر ، وتمكنوا من الوصول الى جبال لبنان بعد ان اقتحموا اكثر سواحل سورية الممتدة من جبال طوروس الى فلسطين .

وكان معاوية امام هذا الموقف بين عاملين : الاول مهاجمة الجراجمة واجلاؤهم عن المدن التي احتلوها ، حتى لايكون بطوقهم التمكن في السواحل وقطع الصلة بين دمشق والامبراطورية الاسلامية وراء البحار ، والعامل الثاني الاتفاق مع بيزانطة على وقف هذه الغزوات ، ثم مهاجمة الجراجمة وتمزيقهم .

والظاهر ان معاوية فضل الرأي الثاني ، واتفق مع بيزانطة على مال يؤديه اليها وهدايا يقدمها لامبراطورها شرطان لا تؤيد هذه الجراجمة ، وان تتنكر لهم ، ورضيت بيزانطة بهذا الاتفاق اذ مكنها على ما نعتقد من الاطمئنان الى سلامة حدودها ولو موقتاً ، وقام معاوية في نفس الوقت بمهاجمة الجراجمة او المردة في لبنان ، والامعان فيهم قتلاً وتشتيتاً ، بحيث لم يبق منهم إلا اقلية ضئيلة ظلت

معتصمة في الجبل حتى ايام عبد لملك بن مروان [١]

وبذلك استطاع معاوية ان يقضي ايامه الاخيرة قرير العين مطمئن البال الى سلامة الامبراطورية، التي كانت تساوق الشمس في مشرقها وراء البحر المتوسط، وتسايرها في مغربها حول السند وحدود الهند.



(١) تقول المصادر اليونانية ان الاتفاق الذي صار بين معاوية والامبراطور كان يقوم على اربعة بنود : اولها ان يؤدي معاوية الى الامبراطور ثلاثة آلاف قطعة ذهبية في السنة، وان يطلق سراح ثمانية آلاف اسير، وان يرسل له خمسين جواداً من احسن الخيول العربية .

# - ١٣ -

## ولاية العهد ليزيد بن معاوية

يقول مؤرخو العرب ان المغيرة بن شعبة هو اول من اشار على معاوية بولاية العهد لابنه يزيد، وذلك ان معاوية اراد في سنة ٥٦ للهجرة ان يعزل المغيرة عن الكوفة ويستعمل عليها سعيد بن العاص، فبلغ الخبر المغيرة فذهب الى الشام، ومشى الى يزيد بن معاوية وراح يقول له :

ـ انه قد ذهب أعيان اصحاب رسول الله وآله و كبراء قريش وذوو اسنانهم، وانما بقي ابناؤهم، وانت من افضلهم واحسنهم رأياً واعلمهم بالسنة والسياسة ولا ادري ما يمنع امير المؤمنين ان يعقد لك البيعة ؟

فقال يزيد : او ترى ذلك يتم ؟

فقال المغيرة : نعم .

ومضت ايام ويزيد يطوي هذا الرأيَ الجديد في فكره، ويقلبه، ويأخذ ببحث اطرافه ومصايره، حتى اختمر به قلبه فحمله الى ابيه فنفضه اليه .

فاحضر معاوية المغيرة وسأله عن هذا الامر وما قاله يزيد ، فقال له :

ـ يا امير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء ، والاختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف ، فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة .

قال معاوية : ومن لي بهذا ؟

فقال المغيرة : اكفيك اهل الكوفة ، ويكفيك زياد اهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين احد يخالفك .

وتمضي كتب السير في وصف ما كان من شأن معاوية فتقول : انه اصدر امره الى المغيرة بالعودة الى الكوفة ، وعدل عن عزله وطلب منه ان يمهد له هذا الامر ، فعاد الى الكوفة واخذ يحبب الى الناس بيعة يزيد ، فبايع انصار الامويين ، فارسل عشرة منهم الى معاوية ، فزينوا له البيعة وطلبوا منه ان يعهد اليه ،فقوي عزمه واطمأن الى ان المغيرة ناجح ولا شك في ما كلفه به من ترويج الدعوة في الكوفة ، وراح يكتب الى زياد بما يراه،ويطلب منه اقرار هذا الامر في مصره ، فنصح له زياد بالتريث لعدم توافر شروط الخلافة في يزيد وقال له في كتابه اليه « ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد اولع به من الصيد » وعاد الوسول الى

دمشق ، واخبر يزيد برأي زياد فيه ، فكف عن كثير مما كان يصنعه، واخذ معاوية بعد كتاب زياد بالتأني في الامر نزولا منه عند مشورة حاكم العراق .

***

ومضت اشهر ، وتوفي زياد ، واحس معاوية بالضعف يتسلل الى جسمه ، فعول على بعث البيعة ، واقرار امره فيها ، فكتب الى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول :

« اني قد كبرت سني ودق عظمي ، وخشيت الاختلاف على الامة من بعدي ، وقد رأيت ان اتخير لهم من يقوم بعدي ، وكرهت ان اقطع امراً دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك عليهم واعلمني بالذي يردون عليك »

عرض مروان الامر على الانصار والمحاسيب ومؤيدي معاوية اول الامر فوافقوا ، فاخبر معاوية بموافقتهم ، فارسل الى مروان كتاباً يعزم فيه على البيعة لابنه يزيد ، فقرأه على الناس في المسجد فهاج القوم وماجوا ، وقال عبد الرحمن بن ابي بكر :

ـ ما الخيار اردتم لامة محمد ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل .

وقام الحسين بن علي فانكر ذلك ، وفعل مثله عبد الله

ابن الزبير .

وكذلك ظهرت المعارضة التي انكرت البيعة ليزيد وعلى رأسها عبد الرحمن بن ابي بكر ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، ولكن معاوية لم يأبه لها ، ولا اهتم بها ، وكتب الى عماله ان يمهدوا البيعة ليزيد في الامصار ، وان يرسلوا اليه الوفود الى دمشق لاعلان رضاهم عن تلك البيعة .

وجاءت الوفود تؤيد صاحب الامر – كما هو الحال اليوم – فتكلم باسم هذه الوفود الضحاك بن قيس الفهري ، ودعا لبيعة يزيد ، فاطمأن معاوية ، واستأنس بهذا التأييد ، واعلن البيعة لابنه امام الوفود التي خطبها معاوية ، والضحاك بن قيس وغيرهما ، في تعظيم الاسلام وحرمة الخلافة ، وفضل يزيد وعلمه بالسياسة وما يترتب على مبايعته من جمع كلمة المسلمين وتأييد الامن في مشرق الارض ومغربها .

وليس بطوق المؤرخ المعاصر الذي يساير هذه الحوادث ، متنقلاً في اخبارها ، متفحصاً اسبابها ، في كتب السيرة وغير كتب السيرة ، إلا ان يقول ان البيعة لم تكن عامة ، وانما كانت خاصة ، وان الناس فيها كانوا احد رجلين : رجل ابى واستنكر ، وآخر رضي عن خوف وطمع ، وقد صور الاحنف بن قيس الموقف في هذه الكلمة التي خاطب بها معاوية لما سأله رأيه فقال :

«نخافكم ان صدقنا، ونخاف الله ان كذبنا، وانت يا امير المؤمنين اعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فان كنت تعلمه لله تعالى وللامة رضا فلا تشاور فيه، وان كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وانت صائر الى الآخرة؛ وانما علينا ان نقول سمعنا واطعنا»

ولكن معاوية كان مثله في ذلك الحين مثل الوالد الذى لا يرى غير فتاه، فما كانت تؤثر عليه مصلحة عامة، او آخرة قريبة، وكان يعتقد انه وقد تمكن من تهدئة الحالة في عهده، واستوثق من الامن الداخلي والخارجي في ملكه، فان يزيداً والحالة هذه ليس مواجهاً خطراً داهماً، ولا احداثاً عظيمة، وان ما «انعم» الله به عليه من خلق واخلاق لا تتعلق بكثير ولا قليل في ادارة هذه المملكة الواسعة الاطراف، الى ان فتاه كان باعتقاده اصلح من غيره، واحق بهذه الامبراطورية التي اثبت اركانها ابوه، واسلس حدتها والده.

ولذلك نراه يستعمل جميع انواع الحيل، ومختلف اشكال الدهاء في سبيل الوصول الى غرضه، فيعطي المقارب ويداري المباعد، ويلطف من حدة الغاضب حتى استوثق له اكثر الناس، وبايعوا ابنه يزيد، فلما تمت بيعة اهل الشام والعراق، ذهب الى المدينة لاخذ البيعة الى ابنه، فقابله الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر، فاساء وفادتهم، ودخل على عائشة ام

المؤمنين فشكاهم اليها وهدد بقتلهم ان لم يجيبوه الى بيعة يزيد ، فنصحت له ان يرفق بهم ويحسن معاملتهم ، فقبل النصيحة ، وعاد الى المدينة فاغدق على عبد الله بن الزبير والحسين بن علي وعبدالله ابن عمر ، الهبات والهدايا ، وتكلم معهم بشأن البيعة ، فقال ابن الزبير :

ـ نخيرك بين ثلاث خصال .

قال معاوية : اعرضهن .

قال : تصنع كما صنع رسول الله صلى عليه وسلم ، او كما صنع ابو بكر ، او كما صنع عمر .

قال معاوية : ما صنعوا ؟

قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف احداً فارتضى الناس ابا بكر .

قال : ليس فيكم مثل ابي بكر واخاف الاختلاف .

قالوا : صدقت ، فاصنع كما صنع ابو بكر فانه عهدالى رجل من قاصية قريش ليس من بني ابيه فاستخلفه ، وان شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الامر شورى في ستة نفر ليس فيهم احد من ولده ولا من بني ابيه .

قال معاوية : هل عندك غير هذا ؟

قال : لا

وسكت معاوية قليلاً ثم التفت الى الحسين وعبد الله بن عمر وقال : فانتم ؟

فقالا : قولنا قوله .

قال معاوية : فاني قد احببت ان اتقدم اليكم انه قد اعذر من انذر ، واني كنت اخطب فيقوم الي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فاحمل ذلك واصفح ،واني قائم بمقالة ، فاقسم بالله لئن رد علي احدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه .

ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، وقال له :

— اقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فان ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديق او تكذيب فليضرباه بسيفهما .

ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر ، فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال :

« ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز امر دونهم ، ولا تقضى إلا عن مشورتهم , وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله »

فبايع الناس ، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ، ثم انصرف الى المدينة ، فلقي الناس اولئك النفر ، فقالوا لهم :

ـ زعمتم انكم لا تبايعون فلم رضيتم واعطيتم وبايعتم ؟

فقالوا : والله ما فعلنا .

فقالوا : ما منعكم ان تردوا على الرجل ؟

قالوا : كادنا . وخفنا القتل .

وكذلك بايع الناس ليزيد بن معاوية فانتقلت الخلافة من اسلامية شورية الى ملكية وراثية .



— ١٤ —

# سياسة معاوية

نحن امام شخصية فذة في الدهاء والادارة والسياسة ونظم الحكم ، جمعت بين حسن الرأي ، وجودة المنطق ، ورقيق الدهاء ، وبارع السياسة ، ورائع الحلم ، وهي صفات ليست تتسق جميعها في رجل واحد إلا في القليل النادر .

وقد كان معاوية قبل ان ولي الخلافة يسوس الناس تحت سلطان اعظم من سلطانه ، فاصبح يسوسهم بسلطانه مباشرة ، وساعده على النجاح في الحكم سابقة له من تجربة طويلة ، ابتدأت منذ كان كاتب وحي رسول الله ، حتى قلده الفاروق حكم الشام بعد وفاة اخيه يزيد بن ابي سفيان ، فولي الشام عشرين سنة ، كانت له احسن مدرسة ، وافضل مهذب ، بحيث اتسق له بحث السياسة الادارية في عهده ، والاتصال بما كان للفرس والروم منها خلال الاعوام التي تداولوا فيها حكم الشام وغير الشام من الامصار التي دالت للعرب آخر الامر ، فانبسطت امامه آفاق جديدة من النظر والعبرة ، ولا يبعد ان يكون للوراثة ابعد الأثر في تهذيبه وتكوينه وابوه ابو سفيان كان يعالج شؤون الناس ويتألفهم ويتكلف بحث

مصالحهم واغراضهم ، منذ اتصلت اليه زعامة قريش تجارة وحرباً في السنوات التي سبقت فتح مكة وغير مكة من امصار الجزيرة العربية.

وكان معاوية ارغب ما يكون في تألف الناس اليه ، واكتساب عطفهم ، والتخفيف من ثأرتهم بالحسنى والحلم والعطاء ما كان الى ذلك سبيل ، كان ليناً رقيقاً مع انصاره واعوانه على السواء ، وكان يشفع هـذا اللين بالاحسان اليهم ، ولا نعلم انه استعمل سيفه إلا نادراً وفي ظروف كان يخشى فيها على مصاير الحكم في عهده وبعد عهده ، وقد بلغ من سعة الصدر ، ان ضرب المثل بحلمه ، وقد سن للحكام من بعـده الواناً في هذه السياسة اللينة الرضية لا تزال الى يومنا هذا مناراً يهتدى به ، فقال :

« لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، اذا مدوها خليتها ، واذا اخلوها مددتها »

وقال في موطن آخر يعتذر لشدته في بعض الاحايين :

« اني لا احول بين الناس وبين السنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا » .

ولعله اراد بهذه الكلمة ان يبرر موقفـه من مقتل حجر بن عدي وجماعة حجر ، وقد قتلهم صبراً ، لما راحوا يروجون للثورة عليه ، ويدعون الناس الى خلعـه ، ويقولون ان الخلافة يجب ان

تكون في آل البيت دون سواهم من الناس .

ونحن نعلم ان معاوية في ما خلا هذه البادرة ، كان صادقاً في زعمه من تركه الناس احراراً في مذاهبهم وعواطفهم ، ما لم يكن من وراء ذلك ثورة كامنة ، وفتنة مقبلة ، ذلك انه كان يعلم ان كم الافواه من المستحيل او تنطق بما يراد ، ورضا الناس غاية لا تدرك ، فما دام الامر يفض بالكلام ، وليس وراءه ثورة ولا فتنة فالناس احرار في قولهم ، ومتى لجأوا الى القوة وتطالوا الى الفتنة انكفأ عليهم بقوته ، وما عدا ذلك فالناس وما يختارون من الآراء والمذاهب ، وكان يستشير ارباب الرأي من انصار دولته ، ولا يأتمن في إدارة الولايات والاعمال إلا الكفاة من آل بيته ، فاذا اتفق ان كان فلان ينزع الى كذا او يحب فلاناً من خصومه او يغلظ في بيان رأي يخالفه ، فهذا مما لا يتعلق به كبير امر عنده .

لحصر معاوية نشاطه في الدعوة السياسية ، ومن اجل توطيد دعائمها لجأ الى طرق في الدعوة مؤثرة ، فجعل القصاص والوعاظ في المساجد والمعسكرات يدعون لدولته وينفرون من اعدائها ، خصوصاً لما رأى علياً عند منصرفه من صفين قنت في الصلاة ودعا على من خالفه ، فوقع في نفس معاوية ان يعامل علياً بالمثل وامر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب ان يدعو له ولاهل الشام ، وحمل الامصار على احتذاء مثل ذلك ، فاحدث قصص الخاصة ،

وعهد بها الى رجال يهتمون بسلطانه ، وظل قصاص العامة يجتمع اليهم النفر من الناس يعظونهم ويذكرونهم ، ويقصون عليهم ما يرق قلوبهم ، وكان القصاص اذا سلم الامام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحمده ومجده وصلي على نبيه ، ودعا للخليفة ولاهله ولاهل بيته وجنوده ، وعلى اهل حربه وعلى الكفار كافة ومن القصاص من كانوا يرفعون ايديهم في قصصهم كما كان سليم ابن عتر قاص الجند زمان عمرو بن العاص .

ويقول من امعنوا في درس تاريخ معاوية ان دعوى سنه لعن علي [1] بعد كل خطبة لم يقم عليها دليل ثابت يركن اليه، وما

---

(١) كان اللعن منذ القرن الاول من ايسر ما يقابل به خصم خصمه وبعد انقضاء ثلاثة عشر قرناً وانطواء ذلك البساط بما عليه من غيظ ، لم تشف صدور بعضهم من النيل من الراشدين والامويين والعباسيين حتى كاد لعنهم بعد من اركان المذهب، وصار بعضهم ينعتون الشيخين بصنمي قريش ويقذفون بابنتيهما الطاهرتين ، واصبح اللعن سنة من سنن العباسيين ، يلعنون كل من حارب سلطانهم ، وقد عزم المعتضد على سب معاوية على المنابر فحذره وزيره من اضطراب العامة وامر المعتمد بلعن ابن طولون على المنابر لما استأثر بولاية مصر والشام فلعن ببغداد وسائر العراق ، ولعن ابن طولون المعتمد على المنابر في جميع اعماله بمصر ، وعمد الى هذا اللعن السياسي بعض خلفاء بني العباس ، اما الاسلام فلم يجوز اللعن الا على الكفار لا على التعيين ، وقد وردت عدة آيات في الكتاب العزيز في لعن الظالمين والمنافقين اكباراً لفعلتهم في حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم

— عن الادارة الاسلامية في عز العرب —

من اثر يدل على ان هذا اللعن تقدم مروان بن الحكم ، وبذلك يبرأ معاوية من هذه الوصمة ، وقد جلب لعن علي للامويين من البغضاء المستترة اكثر مما نالهم من الفائدة السياسية ، كما اخطأ معاوية باطلاق يد زياد في سياسة القمع في العراق على صورة هائلة تخالف ما كانت عليه سياسة معاوية من اللين ، وكان عليه ان يطبق بنفسه هذه السياسة مباشرة ، وانتشر لعن الطالبيين للامويين ولعن الامويين للطالبيين في كل مكان ، وقد لعن الامويون علياً على منابرهم نحو الف شهر ، ولم تبطل هذه البدعة السيئة إلا في عهد عمر بن عبد العزيز ، استعاض عنها بآية : « ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا في الايمان » الآية وقيل بل جعل مكان ذلك : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر » وقيل بل جعلهما جميعاً ، وكان العلويون يقنتون عقب الصلوات يلعنون بني امية يشفون بذلك نفوسهم الثائرة ، من اجل دماء مطلولة وملك مستأثر به .

وساوق معاوية عمر بن الخطاب في التعرف على اخبار رجاله ورعيته فانتظم له امره ، وفعل زياد بن ابيه وعبد الملك والحجاج مثل ذلك .

***

واذا نظرنا الى علاقات معاوية مع انسبائه الامويين نجده لم يقع في الخطأ الذي وقع فيه عثمان من اطلاق يد مروان وغير مروان من بني قرابته في شؤون الخلافة ، مما كان السبب المباشر للثورة والفتنة ، فقتل عثمان رضي الله عنه ، واما معاوية فقد خدم قرابته خدمات ما نستطيع انكارها ، ولكنه لم يول احداً منهم مصراً كبيراً كالعراق مثلاً فيه مسؤولية وشغب كثير ، بل اكتفى بان اوطأ لهم الحجاز ، فكان يولي واحدهم اولاً الطائف فان رأى منه خيراً ، وما يعجبه ويرضيه ولاه مكة معها، فان احسن الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً جمع له معهما المدينة ، وكان الى ذلك كله يلقي في روع كل منهم ان مصيره ومستقبله معلقان بخدمته للخليفة خدمة ناصحة صادقة .

ولم يكن معاوية من الرجال الذين يسكتون عن تبسط بعض قرابتهم في الامصار التي يتولونها ، ولعل مرد ذلك خوف معاوية من تسلل الغرور اليهم ، فيذهب واحدهم الى الايمان بانه حقيق بالخلافة بعد معاوية ، وانه قد يصل اليها وان كان لا ينكر ان الامويين قد ايدوه حتى وصل الى الخلافة ويجب ان يكون لهم نصيب في المأدبة ، ولكنه لم يكن يسمح لهم باكثر من ذلك ، فاما الحكم ومسؤولياته واما السلطان وامجاده فهذا يجب ان يكون فيه وفي ولده وبني سفيان ، وكانت هذه الفكرة من الاسباب التي حملت الامويين

من سلالة مروان وغير مروان على الغضب والاستنكار .

والواقع ان معاوية لم يبخل على جماعة امية بالهدايا والعطايا ، وزاد ندى فافضى الى بعضهم بالوظائف التي هي اقرب الى التشويفات منها الى شيء آخر ، ولكنه منع عنهم الوظائف الكبرى ذات النفوذ الكبير والمجد الوسيع ، كولاية العراق مثلاً ، واذا رأينا شقيقه عتبة في مصر وعبد الله بن عامر في البصرة فقد كان ذلك فلتة من فلتات حكمه لا يصح ان تكون سابقة تتخذ حجة عليه خصوصاً وهو لم يولهما البلدين الا لظروف خاصة، واسباب معينة .

وهناك ظاهرة غريبة في معاوية، فقد كان ينصرف احياناً الى المكيدة والحيلة ويتكلف ايقاع النفرة بين اقاربه الذين يخشى من نفوذهم على يزيد وحفدته من بعده ، خصوصاً مروان بن الحكم وهو شيخ امية وسعيد بن العاص ، وكان اعظم بني امية نفوذاً ، فقد ذهب معاوية في سنة اربعة وخمسين للهجرة يعزل سعيد بن العاص عن ولاية المدينة ، ويستعمل مروانا عليها ، وكان سبب ذلك ان معاوية كتب الى سعيد بن العاص ان يهدم دار مروان ويقبض امواله كلها ليجعلها صافية ويقبض منه فدك ، وكان وهبها له، فراجعه سعيد بن العاص في ذلك ، فاعاد معاوية الكتاب بذلك ، فلم يفعل سعيد ووضع الكتابين عنده فعزله معاوية ، وولى مروان وكتب

اليه يأمره بقبض اموال سعيد بن العاص وهدم داره ، فاخذ الفعلة وسار الى دار سعيد ليهدمها ، فقال له سعيد :

ـ يا ابا عبد الملك اتهدم داري ؟

قال : نعم كتب الي امير المؤمنين ولو كتب اليك في هدم داري لفعلت .

فقال : ما كنت لافعل .

قال : بلى والله .

قال كلا ، وقال لغلامه : ائتني بكتاب معاوية ، فجاءه بالكتابين فلما رآهما مروان قال :

ـ اكتب اليك فلم تفعل ولم تعلمني .

فقال سعيد : ما كنت لامن عليك وانما اراد معاوية ان يحرض بيننا .

فقال مروان : انت والله خير مني ، وعاد ولم يهدم دار سعيد وكتب سعيد الى معاوية :

« العجب مما صنع امير المؤمنين بنا في قرابتنا ان يضغن بعضنا على بعض فامير المؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره من الاخبثين وعفوه وادخاله القطيعة بيننا والشحناء وتوارث الاولاد ذلك ، فوالله لو لم نكن اولاد اب واحد لما جمعنا الله عليه من نصرة امير المؤمنين الخليفة المظلوم ، وباجتماع كلمتنا لكان حقاً على امير المؤمنين

ان يرعى ذلك »

فكتب اليه معاوية يعتذر عن ذلك ، ويتنصل وانه عائد الى احسن ما يعهده ، وقدم سعيد على معاوية فسأله عن مروان فاثنى عليه خيراً ، فقال له معاوية :

ــ ما باعد بينه وبينك ؟

ــ خافني على شرفه وخفته على شرفي .

قال : فماذا له عندك ؟

قال : احفظه شاهداً او غائباً



# - ١٥ -

## شيعة معاوية

كانت شيعة معاوية تضطرب في سبعة نفر : عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وحبيب بن مسلمة ، وبسر بن ابي ارطأة ، والضحاك بن قيس ، وابو الاعور السلمي ، وحمزة بن مالك ، وشرحبيل بن السمط الكندي ، وكان هؤلاء من المقربين الى معاوية الموثوق بهم عنده ، الذين يطمئن الى ان ما يفضي اليهم به من امر يقضي على وجوهه لا محالة .

وهذه الشيعة كانت تتعلق بمعاوية عاطفة وحباً واخلاصاً اكثر منها ادارة ومناصب ، وكان معاوية يثق بهم على ما يظهر لنا اكثر مما كان يثق بزياد والمغيرة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ، خصوصاً ونحن نعلم ان معاوية كان يتكلف المودة نحو زياد وكان زياد يفعل مثل ذلك نحوه ، ولم تكن بينهما من رابطة غير رابطة المصلحة ، فمعاوية كان بحاجة الى زياد ، وزياد بحاجة الى معاوية ، واما هؤلاء النفر فكانوا بطانة معاوية وصحبه الخلص ، واكثرهم كانوا من الذين قدموا سورية وهم شباب في اول عهد الفتوح الاسلامية ، وبعضهم بدأ خدمته العامة تحت راية يزيد بن

ابي سفيان شقيق معاوية، فتحت لواء معاوية من بعده، وهذا يفسر لنا تعلقهم به، واخلاصهم لشخصه، اذ كانوا لا يعرفون سواه حاكماً اميراً.

وشيء آخر ايضاً وهو هذه الظاهرة الخطيرة في الادارة الاسلامية عهد معاوية ومن اتى بعده من خلفاء امية، ونعني بها تثبيت الولاة الاقوياء المخلصين في ولايتهم سنوات عديدة حتى يأخذهم الله اليه، ولعل هذا من الاسباب التي مكنت لمعاوية في الحكم واثبتت قدمه في الخلافة، فان تبديل الولاة من العوامل التي تمزق الادارة، وتقضي على هيبة السلطان، خصوصاً اذا كان مرد التبديل انكار الناس لولاية حاكمهم دون ما سبب إلا هذا العنت المفضوح الذي يغمر بعض الجماعات، ومعاوية قد ادرك اهمية هذه الظاهرة الخطيرة، فاثبت زياداً في البصرة حتى قبضه الله اليه، وترك المغيرة بالكوفة حتى توفي وهو في مركزه، وظل عمرو بن العاص يحكم مصر حتى وفاته، وامثال هؤلاء كثير، وان كانت سياسة معاوية في الحجاز غير ذلك، ولعل سياسة الحجاز كانت تحتاج الى شيء من التبديل والتغيير في الولاة، وان كان الولاة الذين تعاقبوا على الحجاز قليل، وكانوا يتداولون الولاية

واحداً بعد الآخر .

***

والواقع ان معاوية لم يكن يستعمل من الولاة الا من ثبتت كفاءته ونجدته في تأييد سلطانه ، يمحضونه النصح ولا يغفلون عن تعهد حال الناس وكشف ظلاماتهم ، واتخاذ الطرق المفضية الى ما فيه راحتهم وهناؤهم ، واذا تبرم اهل قطر بتدابير من وليهم ينقله الخليفة الى قطر آخر يستعيض عنه اكفأ منه او من كان على شاكلته او الين منه عريكة، يريد عاملاً حقيقياً للعمل لا عملاً لعامل يرزقه ، وكان يتطلب عاملاً اذا عرضت له المعضلات شق لنفسه طريقاً فيها ، ووفق الى تذليلها

اوعز زياد الى والي خراسان ان يصطفي لمعاوية الصفراء والبيضاء فلا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة عملاً بكتاب وردعليه من الخليفة ، فكتب والي خراسان الى زياد :

« بلغني ما ذكرت من كتاب امير المؤمنين واني وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب امير المؤمنين ، وانه والله لو ان السماء والارض كانتا رتقاً على عبد ثم اتقى الله جعل له مخرجاً والسلام » .

وقسم الفيء بين الناس من الذهب والفضة ، ولم ينفذ ماامر

به الخليفة من امر يجحف بارباب الاستحقاق في العطاء من الجند والعمال ، ذلك لانه رأى في ولايته ما لم يره الخليفة ولا عامله الاكبر زياد ، وهذا يدل على ما كان للعامل الامين في عهد معاوية من الحرية فيما يرتئيه لاصلاح عمله ، والادارة في قطر قد لا تصلح لقطر آخر ، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب

حدث زياد عن نفسه قال :

ـ ما غلبني امير المؤمنين إلا في واحدة ، طلبت رجلاً فلجأ اليه وتحرم به فكتبت اليه :

« ان هذا فساد لعملي اذا طلبت رجلاً لجأ اليك وتحرم بك »

فكتب اليه معاوية :

« انه لا ينبغي ان نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون انت للشدة والغلظة ، واكون انا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا »

وهذا من الدهاء حقاً ، والدهاة اربعة كما يقولون : معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة بن شعبة للمعضلات ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة .

وقال بعضهم : « دهاة العرب وذوي الرأي والمكيدة معاوية وعمرو والمغيرة وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل بن ورقاء ،

واربعة ممن ذكر دبروا ملك بني امية ، والآخران كانا من جماعة علي .

***

وما كان معاوية يستخدم الحسام ، اذا اغناه الكلام ، رمى اهل مصر بعمرو بن العاص لانهم اشتركوا بمقتل عثمان ، كما اشتركت الكوفة والبصرة وبعض اهل المدينة ، ولما هلك ولى مصر اخاه عتبة بن ابي سفيان ، وكان والي عمر على الطائف وصدقاتها ، وهو من بلغاء الخطباء ، قيل لم يكن في بني امية اخطب منه ، فاشتد على اهل مصر ، وادخل الرهبة في قلوبهم ، ومن جملة ما خطبهم وفيه نموذج من خطته وخطة اخيه ، قوله :

« يا اهل مصر خف على السنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وانتم تأتونه ، كالحمار يحمل اسفاراً اثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، واني والله لا اداوي ادواءكم بالسيف ، ولا ابلغ السيف ما كفاني السوط ، ولا ابلغ السوط ما كفتني الدرة ، ولا ابطيء عن الاولى ان لم تصلحوا عن الاخرى ، ناجزاً يناجز ، ومن حذر كمن بشر ، فدعوا قال ويقول ، من قبل ان يقال فعل ويفعل ، فان هذا اليوم الذي ليس فيه عقاب ، ولا بعده عتاب » .

وخطب الناس بمصر يوماً عن موجدة فقال :

« ياحاملي الأم آنف ركبت بين اعين ، اني انما قلمت

اظفاري عنكم ليلين محسناً لكم ، وسألتكم صلاحكم اذ كان فسادكم باقياً عليكم ، فاما اذا ابيتم إلا الطعن على السلطان ، والتنقص للسلف فوالله لاقطعن بطون السياط على ظهوركم ، فان حسمت ادواؤكم وإلا فان السيف من ورائكم ، فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم ، ولست ابخل عليكم بالعقوبة ، اذ وجدتم بالمعصية ، ولا اؤيسكم من مراجعة الحسنى ، ان صرتم الى التي هي ابر واتقى » .

واستخلف عتبة هذا عاملاً له على مصر ، وكانت له شدة فامتنع عليه بعض اهلها فكتب الى عتبة ، فقدمها فدخل المسجد ورقي المنبر وقال :

« يا اهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم ، لبعض الجور عليكم ، وقد وليكم من ان قال فعل ، فان ابيتم درأكم[1] بيده ، فان ابيتم درأكم بسيفه ، ثم جاء في الآخر ما ادرك في الاول : ان البيعة شائعة ، لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل ، واينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه » .

فناداه المصلون من جانب المسجد « سمعاً سمعاً » فناداهم « عدلاً عدلاً » وهو تهديد نافع هدد به عتبة اهل مصر ليحملهم على الطاعة ، ويدفع عن اهل البلاد غائلة الفتن بموعظته في خطبته ،

---

(١) درأه دفعه دفعاً شديداً

وهذاالسلوب جميل في الادارة يدل على بعد نظر ، ورغبة في الاحسان والخدمة.

وخطب عتبة في الموسم في سنةاحدى واربعين ، وعهدالناس حديث بالفتنة ، فاستفتح ثم قال :

« ايها الناس إنا قد ولينا هذا الموضع الذي يضاعف الله فيه للمحسن الاجر ، وعلى المسيء الوزر ، فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا فانها تنقطع دوننا ، ورب متمن حتفه في امنيته ، اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم » .

ومن هذا يظهر لنا كيف كان عمال معاوية يخلقون الناس خلقاً جديداً ، وبعتبة وامثاله ادخلوا الناس الى الطاعة ، وكانوا قد اغرقوا في الفتنة الى ابعد حدودها ، وبعتبة وامثاله من العمال الذين كانوا يعملون للجماعة بعقولهم وقلوبهم وهم على اقتناع من صحة دعواهم ، حملوا الناس الى الانقطاع الى اعمالهم واضطروهم الى ان يتركوا الخوض في سياسة الملك ، الى من يحسن القيام عليها .

ولقد يأخذ العجب من ينظر الى سيرة هؤلاء العمال وعفتهم عن الاموال ، وتبلغهم بالقليل ، وانفاقهم بلا حساب لتأليف السارد واستمالة الخصم المعاند ، فقد ذكر المؤرخون ان عمرو بن العاص الذي ولي مصر مرتين وجعلها له معاوية في المرة الثانية طعمة بعد

الأنفاق على مرافقها اذا هو ساعده على قتال علي ، ان هذه الطعمة لم تعد على عمرو بثروة تذكر ، وما اشتد عمرو على اهل مصر اشتداد عتبة، لان هذا كان في سن الكهولة وعمرو في سن الشيخوخة والشيوخ في الادارة اقرب الى الحنكة والروية من الشباب على الاغلب ، اما سائر عمال الدولة فكانوا بحسب الحال : على طريقة عتبة الناطقة او على طريقة عمرو الصامتة .



## - ١٦ -

# ادارة معاوية

يقول الاستاذ نيكلسون في كتابه تاريخ الادب العربي يصف معاوية :

« كان معاوية سياسياً محنكاً حاذقاً ، لا يقل عن ريشيلو السياسي الفرنسي الشهير ، من حيث توحيد الدولة ، والقضاء على المعارضات ، وتألف القلوب، وتهدئة الخواطر ، وقد مكنته معرفته التامة بالطبائع البشرية من ان يجذب اليه الرجال ذوي الآراء المعتدلة في جميع الاحزاب المعارضة »

والواقع ان في هذه الكلمة بعض الحق ، وان كانت الجملة الاخيرة لا تضطرب مع وقائع الحال إلا على قدر ،لان معاوية لم يجتذب اليه والى سياسته جميع المعتدلين من الاحزاب المعارضة ، ولكنه تمكن من حملهم على الاستكانة الى الامر الواقع ، والرضاء بالحكم القائم،فكانت القلوب والحالة هذه تضطرب في ضغينة ظاهرة، وحقد خافت ،ودم موتور تتربص الفرص ، وتتحين الظروف لترفع رأسها وتعود سيرتها الاولى من الشغب والفتن وطلب الثارات .

كان معاوية عاقلاً لبيباً عالماً حليماً قوياً حسن السياسة بارع الادارة ، موفق التدبير لامور الدنيا ، يحلم في موضع الحلم ، ويشتد في موضع الشدة ، والاول عليه اغلب ، وكان كريماً يبذل المال للاعداء والاصدقاء على السواء ، يتألف به القلوب ، ويخفف بواسطته الاحقاد ، محباً للرياسة مشغوفاً بها ، يفد عليه اشراف قريش من امثال عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر ، وابان بن عثمان ابن عفان ، وناس من آل ابي طالب رضي الله عنهم ، فيكرم مثواهم ، ويحسن قراهم ويقضي حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه اغلظ الحديث ويقرعونه باشد الكلم ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل عنهم اخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز والصلات .

قال يوماً لقيس بن سعد بن عبادة ، وكان من كبار انصار الامام رضي الله عنه :

ــ ياقيس والله ما كنت اود ان تنكشف الحروب التي كانت بيني وبين علي وانت حي .

فقال قيس : والله اني كنت اكره ان تنكشف تلك الحروب وانت امير المؤمنين .

فلم يقل له معاوية شيئاً ، وهذا من اجمل ما كانوا يخاطبونه به .

ولقد ابتكر معاوية في الدولة اشياء لم يسبقه احد اليها ، منها انه اول من وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين ايديهم ، ووضع المقصورة التي يصلي فيها الخليفة منفرداً عن الناس ، وهو اول مسلم غزا في البحر وانشأ الاسطول في صناعة صور وعكا وطرابلس ، وغزا الروم ، ولما فتح قبرص ورودس كان معه ١٧٠٠ سفينة ، واهم ما قام به تنظيم الجيش فضاعف عطاءه ووقت اوقاتاً لتناول ارزاق الجند ، ووفق الى استخدام اكبر رجال الادارة واعظمهم زياد ، ثم عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والضحاك بن قيس وابو الاعور السلمي ومسلم بن عقبه وبسر بن ابي ارطاة وحبيب بن مسلمة ، وكان اذا لائه اهله على كثرة بذله المال للعلويين والهاشميين اجابهم ان الحرب تستلزم نفقات اكثر من هذا العطاء .

وهو اول من وضع البريد ، احضر رجالاً من دهاقين الفرس واهل عمال الروم فعرفهم ما يريد فوضعوا له البريد ، واتخذوا له بغالاً باكف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة او صاحب الخبر لتسرع اليه اخبار بلاده من جميع اطرافها ، وهو الذي اخترع ديوان الخاتم ، وحزم الكتب ولم تكن تحزم واستكتب عبد الله بن اوس الغساني سيد اهل الشام ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس

فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل ، فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب اسماءهم ، ويقال نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله فيسميه وعياله ، فاذا فرغ من القبيل اتى الديوان حتى يثبت ذلك ، وعلى هذا كانت الدولة تحصي السكان ولا يفوتها خبر من ينتقل فى ارجاء البلدان .

واستخدم معاوية النصارى في مصالح الدولة وكان عمر يمتنع عن استخدامهم إلا اذا أسلموا ، فعهد الى سرجون بن منصور ، ثم الى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام بادارة امواله ، وكان منصور والد سرجون على المال في الشام من عهد هرقل قبل الفتح ، ساعد المسلمين على قتال الروم بان ابى ان يمسك الرجال بالمال قائلاً : ان الملك اي هرقل غير محتاج الى هذا العسكر العظيم لانه يحتاج الى مال كثير وليس بدمشق مال عظيم ، قالوا انه اراد بذلك ان يسمع الرجال ان ليس بدمشق مال يعطيهم ، فيتفرق الجند ويسلم المدينة الى العرب .

***

وكان معاوية يحب الانتفاع من كل قوة تستخدم في قيام الدولة وتعين على انتظام الجماعة ، ولما رحل جبلة بن الايهم الى الروم وارتد عن اسلامه دعاه معاوية بن ابي سفيان الى الرجوع الى الاسلام ،

ووعده اقطاع الغوطة باسره، يريد بذلك تلافي ما وقع من عمر بن الخطاب يوم ابى إلا إقامة الحد على جبلة ، فكان من ذلك فراره الى الروم «وكان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام كما كان آل نصر عمال الاكاسرة على عرب العراق »

وباتخاذ دمشق دار الخلافة بعد ان كانت دار ادارة الشام وحدها ، انتقلت سياسة الملك من المدينة فكثر سكان الفيحاء من العرب يقصدها طلاب العمل وغيرهم من الاقطار ، ويختص الخليفة اهل الشام بعنايته ، ويستعمل الصالحين من اهل الذمة في اعماله الادارية ، ورأى النصارى اكثرية في الشام ، فنقل الى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة ، وانزل بعضهم انطاكية ، واصل الزط من السند ، يغلب السواد على سحناتهم ، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الاردن وصور ونقل من اساورة [1] البصرة والكوفة، وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية جماعة ، هذا عدا القبائل العربية التي اسكنها الشام فمزجهم باهلها الاصليين حتى يكون آمناً في دار ملكه، وبعمله هذا اصبح الساحل الشامي غاصاً بالعرب والعجم، وذلك تقادياً من ان يستأثر النصارى

---

(١) الاساورة قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً كالاحامرة بالكوفة

وحدهم بمفتاح البلاد من البحر ، وفي مزج العرب بالفرس بسكان البلاد الاصليين يصبح كل عنصر رقيباً على العنصر الآخر ومنافساً له ، ولما صالح صاحب قبرص خير اهلها بين ان يسكنوا الشام او يرتحلوا الى بلاد الروم ، ولئن غدت دمشق قبلة الاسلام ودار الملك فقد ظلت المدينة عاصمة الفقه والدين مدة خلافته وخلافة من خلفوه ، وما جعل مقره في الشام إلا لاطمئنانه الى اخلاص اهلها له وكفى بعهد إمارته عليهم ان يعرفهم ويعرفوه ، ويطبع طباعهم بطابع الطاعة والتزام جانب الجماعة ، وخصلة اخرى ايضاً وهي ان دمشق متوسطة بين البلاد الاسلامية اكثر من الحجاز ، وفي الشام من الخيرات الطبيعية والاعمال الصناعية ما يمتاز منه الجيش ويرتفق وما يترفه به العلية من رجال الدولة ويقوون ، ونحن على صواب إذا قلنا ان دمشق اصبحت في عهد معاوية ثم في عهد الخلفاء مدرسة يتخرج فيها القواد والامراء والجند .

***

ومن أهم ما قام به معاوية للتأثير في الرأي العام حسن معرفته باستخدام الشعراء [1] وكان الشعراء كأرباب الصحافة في ذلك العصر ، فانتفع بهم لمصلحة الدولة ، وتكوين الوطنية العربية ،

---

(١) معلمة الاسلام ، مادة معاوية

فابعد الشعر عن الهجو المألوف بين القبائل وجعله اداة عمل صالحة،
ولم يغفل معاوية في وقت من الاوقات عن تعهد الزراعة وعني بها
في الحجاز عناية خاصة ، فاحيا موات الارضين ، واحتفر
الآبار للسقيا ، وأقام اسداداً للانتفاع بالمياه ، وسرت اسرته
ومعاصروه على طريقته ، فشهدت الحجاز قرناً من الارتقاء لم
تره من بعد ، هذا مع ان طبيعة الحجاز قاسية غير ملائمة ، ولكن
معاوية ابى على اهل الحجاز ان يعيشوا من العطايا والصدقات
وموسم الحج ، لانها موارد غير طبيعية في المعاش ، ومذاهب في
الاتكال لا يؤمن مع زوالها عيش ونعمة ، وصالحت الروم معاوية
على ان يؤدي اليهم مالاً ، وارتهن معاوية منهم رهناء فوضعهم
ببعلبك ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل
من في ايديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم ، وقالوا : وفاء بغدر خير
من غدر بغدر .

***

وكان معاوية في الابداع بتأسيس دولة الامويين كعمر بن
الخطاب في ابداعه بانشاء دولة الراشدين ، ومع هذا فقد قيل إن
احد الصلحاء سئل ايام معاوية : كيف تركت الناس ؟

قال : تركتهم بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهي .
كأنه يريد ان تكون ادارة الملك على عهد ابن ابي سفيان ،

كما كانت على عهد عمر بن الخطاب ، وفاته ان لكل عصر طريقته ورجاله ، والغالب ان البعيد لا يقدر الامور بقدرها كالقريب ، والصلاح يتوهمون ان العدل المطلق يستفيض في الناس بامر من الخليفة او بعناية عماله وحدهم، وهذا ليس في الواقع من الحقيقة الا على قدر ، لان صلاح الناس يكون من الخليفة ويكون منهم ايضاً ، والوجه الثاني امتن واقوى واثبت على الايام .



# -١٧-

## معاوية في يومه

« كان من اخلاق معاوية انه كان يؤذن في اليوم والليلة خمس مرات[1] كان اذا جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ اجزاءه ، ثم يدخل الى منزله فيأمر وينهي ، ثم يصلي اربع ركعات ، ثم يخرج الى مجلسه ، فيأذن لخاصته الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم الى العشي ، ثم يؤتى بالغداء الاصفر ، وهو فضلة عشائه من جدي بارد، او فرخ او ما يشبهه ، ثم يتحدث طويلا، ثم يدخل منزله ، ثم يخرج فيقول : ياغلام اخرج الكرسي فيخرج الى المسجد، فيوضع فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسي ويقوم الاحداث فيتقدم اليه الضعيف والاعرابي والصبي والمرأة ومن لا احد له ، فيقول واحد : ظلمت، فيقول اعزوه، ويقول آخر عدي علي فيقول : ابعثوا معه ، ويقول ثالث صنع بي ، فيقول : انظروا في امره ، حتى اذا لم يبق احد دخل فجلس على السرير، ثم يقول أذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلني احد عن رد السلام ،

---

(١) المسعودي وهو من الشيعة.

فيدخلون فيقول الواحد منهم :

ــ كيف اصبح امير المؤمنين اطال الله بقاءه ؟

فيقول : بنعمة من الله

فاذا استووا جلوساً ، قال : ياهؤلاء انما سميتكم اشرافاً لانكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا الينا حوائج من لا يصل الينا ، فيقوم الرجل ، فيقول : استشهد فلان، فيقول افرضوا لولده ويقول آخر غاب فلان عن اهله ، فيقول: تعاهدوهم اعطوهم اقضوا حوائجهم اخدموهم ، ثم يؤتى بالغذاء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويتقدم الرجل فيقول له : اجلس على المائدة فيجلس ، فيمد يده فيأكل لقمتين او ثلاثاً والكاتب يقرأ كتابه ، فيأمر فيه امراً فيقال : ياعبد الله اعقب ، فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على اصحاب الحوائج كلهم .

وربما قدم عليه من اصحاب الحوائج اربعون او نحوهم على قدر الغذاء ، ثم يرفع الغذاء ويقول للناس : اجيزوا ، فينصرفون ، فيدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر ، فيخرج فيصلي ثم يدخل فيصلي اربع ركعات ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة ، فاذا كان الوقت وقت شتاء اتاهم بزاد الحاج من الاخبصة اليابسة والخشكنانج ، والاقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق

السميد والكعك المنضد والفواكه اليابسة وان كان وقت صيف اتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل اليه وزراءه فيؤامرونه فيما احتاجوا اليه بقية يومهم ، ويجلس الى العصر ثم يخرج فيصلي العصر ثم يدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع .

فاذا كان في آخر اوقات العصر ، خرج فجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ، ولا ينادى له باصحاب الحوائج ، ثم يرفع العشاء وينادى بالمغرب ، فيخرج فيصليها ثم يصلي بعدها اربع ركعات ، يقرأ في كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخفت اخرى ، ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلي ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء فيما ارادوا صدراً من ليلتهم ، ويستمر الى ثلث الليل في اخبار العرب وايامها وملوكها ، وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الامم السالفة ، ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر التي فيها سير الملوك واخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الاخبار والسير والآثار وانواع السياسات ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم .

وزاد المسعودي وهو مشهور بتشدده في تشيعه فقال: واخبار معاوية وسياسته ، وما اوسع الناس من اخلاقه ، وما افاض عليهم من بره وعطائه ، وشملهم من احسانه ، مما اجتذب به القلوب ، واسترعى به النفوس ، حتى أثروه على الاهل والقرابات ، وجرب ان يأتم باخلاقه جماعة بعده ، كعبد الملك بن مروان وغيره ، فلم يدركوا حلمه ، ولا اتقانه للسياسة ، ولا التأني للامور ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورفقه بهم ، ورفعه لهم على طبقاتهم.

واذا كان هناك ما ينكر على معاوية فهو ما انصرف له من المكر والخداع في الترويج لسياسته ، والوصول الى اغراضه ، وما أسرف فيه من البذل والعطاء ، يشتري بالمال قبائل العرب ورجالاتهم في عهده ، وكان في الواقع يحسن الاختيار في هذا الاسراف ، فلا يخدعه شخص ، ولا يستطيع أن يؤثر عليه احد ، وقد ذكر الطبري ان أبا منازل قال له لما أعطاه سبعين الفاً، وأعطى جماعة لا تعلو مكانتهم مكانته مائة الف :

ـ فضحتني في تميم يامعاوية ، أما حسبي بصحيح ، أولست ذا سن ، أولست مطاعاً في عشيرتي ؟

فقال معاوية : بلى .

قال : فما بالك خسست بي دون القوم ؟

فقال : اني اشتريت من القوم دينهم ، ووكلتك إلى دينك

ورأيك في عثمان بن عفان — وكان عثمانياً —

فقال ابو منازل : وانا فاشتر مني ديني .

فضحك معاوية ، وأمر له بتمام الجائزة .

ولقد امتاز معاوية الى جانب إلمامه التام بميول كل من له به علاقة من البشر ، وصادق تقديره ، مع ثقوب بصيرته بنواحي الضعف التي يستطيع التقرب اليهم منها ، امتاز الى جانب هذا كله بصفات لها مكانتها السامية في تكوين دهاة ساسة العصر الحاضر ، منها براعته في ايقاع اعدائه في مشكلات لا تقوم لهم من بعدها قائمة ، وانصرافه في كثير من الاحايين الى إثارة النفرة في قلوب انسبائه إذا خشي اتفاقهم ليس عليه في حياته ، وإنما على ولده بعد مماته ، وهذه الظاهرة الغريبة من بعد النظر تدل حقاً على علم وفير ، ودهاء عظيم .

الى جانب هذه العناصر المكونة لهذه الشخصية البارزة التي اعتمدت في تأسيس ملكها ، على ما اعتمدت عليه من ترضي الاحزاب بالمال ، وعامة الناس بالطعام ، واستغلال العصبيات العربية والتساهل في إقامة الحدود الدينية ، ما كان الى ذلك سبيل ، فان معاوية يصف بنفسه سبب نجاحه فيقول :

« اعنت على علي بن ابي طالب ، باربع خصال : كان رجلاً لا يكتم سراً ، وكنت كتوماً لسري ، وكان يسعى حتى يفاجئه

الامر مفاجأة ، وكنت ابادر الى ذلك ،وكان في اخبث جند واشدهم خلافاً ، وكنت احب الى قريش منه »

***

وليس من شك في ان معاوية اعظم رجل انجبته امية على الاطلاق ، وإن كان المروانيون من خلفاء امية يحاولون كثيراً الانتقاص منه ، والحط من منزلته وأعماله ، ولعل مرد ذلك ان مروان بن الحكم كان يريد الخلافة لنفسه بعد معاوية ، وحجته في ذلك انه سيد امية ، وانه كان امين سر عثمان بن عفان ، ونحن نعلم انه لم يبايع ليزيد إلا مكرهاً ، وحين رأى ان رفضه البيعة ليزيد قد يضعف سلطان امية ، ولم يكن معاوية يجهل مروان واغراضه ، ولكنه لم يكن يحب البطش باهله إلا على قدر ، وكان يتوسل على ما يظهر الى اضعاف نفوذهم باثارة العداوة بين بعضهم بعضاً ، ولكنه كان في اكثر الاحايين رضياً هيناً معهم ، فلم يكن يشتد عليهم كل الشدة ، ولم يقاطعهم كل المقاطعة ، ولا ذهب يقربهم اليه ، بحيث يثير الخيلاء في نفوسهم .

وكان مروان اكثر بني امية نقمة وغضباً ، لوصول معاوية الى الخلافة ، واضطرار مروان وهو شيخ بني امية ان يكون بين رجاله وفي عداد عماله ، وكان يعتقد ان ثورة المدينة ، ومروان صاحبها ، قد افادت معاوية وحده دون غيره من الامويين ، وكان

يجاهر برأيه هذا ، يؤيده في ذلك بنو عثمان بن عفان ، ويعرف معاوية بهذه الاخبار من عيونه المنتشرين في البلاد العربية الذين كانوا يحرصون على نقل اخبار هذه المعارضة العائلية باقصى ما يكون من السرعة اليه بواسطة البريد الذي انشأه ، ليكون بطوقه ان يعرف مختلف اخبار الامبراطورية في اسرع ما يكون من الوقت .

والمؤرخون يعدون معاوية وعماله الثلاثة من اعظم دهاة العرب ، ومن ذلك قول احدهم :

« ما رأيت أثقل حلماً ولا اطول اناة من معاوية ، ولا رأيت اغلب للرجال ولا ابذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ، ولا اشبه سراً بعلانية من زياد ، ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية ابواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر يخرج من ابوابها كلها »

ولقد مكن معاوية من البذل اول عهده في الحكم ما في الشام من الخير الكثير والاموال الطائلة ، فلما خلصت له الخلافة عمد الى التوسعة على الناس ، ببذل الاموال ، وكان يبذلها للناس عامة وبني هاشم وانسبائه خاصة تخفيفاً لما في انفسهم من النقمة عليه لاستخراجه الخلافة من بين ايديهم ، وكان اذا وفد احدهم عليه بالغ في اكرامه وارضائه وقضاء حوائجه وكثيراً ما كانوا وهم في مجلسه يذكرون حقهم بالخلافة ، ويعرضون باختلاسه اياها ، فيغضي عن ذلك ويبتسم

ويعود سيرته من بذل الاموال لهم .

ولقد اقتبس معاوية عن الروم اسباب البذخ ودواعي الترف وقلدهم في ابهة الملك ، وامجاد العرش ، فاقام الحرس يحملون الحراب بين يديه اذا مشى او قام للصلاة ، وبنى لنفسه قصراً نصب اليه السرير واوقف الحاجب ببابه ، وبنى مقصورة في المعبد اذا جاء للصلاة صلى فيها ، وقلد الروم في لبس الحرير والديباج .

***

وقد حدث اثناء انشاء معاوية المقصورة في « مسجد الجماعة » في دمشق ضجة عظيمة بين الناس ، وعد ذلك منه بعضهم خروجاً على الدين ، ورغبة في السيطرة والاستبداد والارتفاع عن الناس ونحن نظن ان السبب في المقصورة ما كان يخشاه معاوية من اعتداء الخوارج وغير الخوارج من اعدائه عليه ، خصوصاً وقد رأى بعيني رأسه ان ثلاثة من اربعة خلفاء ماتوا قتلا ، فلم ير والحالة هذه من الحكمة ان يكون مصيره مصيرهم .

ثم نراه لم يقف عند هذا الحد في المحافظة على نفسه ، خصوصاً بعد الاعتداء عليه ، فامر بادخال حراسه الى المسجد يقومون على رأسه عند الصلاة ، وهذا شيء جديد في الاسلام ، وشيء آخر ايضاً وهو ان رسول الله وخلفاءه من بعده كانوا يخطبون الناس في المسجد قياماً ، فلما ولي معاوية أبدل هذه السنة واخذ يخطب

الناس وهو جالس في مكانه ، وهي ظاهرة غريبه حقاً ، تدلنا على تأثير التقاليد الفارسية والبيزانطية في معاوية .

ويذهب بعض المستشرقين الى ان المنبر الحاضر الذي نراه في مساجد الاسلام اليوم يختلف اختلافاً عظيماً عن المنبر الماضي الذي كان يخطب عليه خلفاء الاسلام في سابقات الايام ، فمنبر اليوم هو للخطيب الذي يخطب الناس في ايام الجمع، واما في الماضي فكان عبارة عن مجلس يعلو مجالس الناس، بحيث يكون مظهراً من مظاهر الخلافة ، وكان الخليفة يجلس على هذا المقام لاستقبال الناس ،والقضاء بينهم ، وتقبل البيعة منهم ، واستقبال الوفود من مختلف ارجاء الامبراطورية.



# -١٨-

## السم عند معاوية

كان معاوية من دهاة السياسيين في عرف اكثر المستشرقين، والداهية في نظرهم العبقري السياسية، البارع الادارة الذي لا يتعجل الاحداث، ولا يعتزم امراً إلا وهو واثق من نجاحه وفلاحه المتكلم اللسن، الشديد البطش، البعيد النظر، وكان العرب يقولون في المغيرة: «كان المغيرة من دهاة العرب، وحزمتها وذوي الرأي منها، والحيل الثاقبة» وتعريف الداهية والحالة هذه في نظر العرب كان اوسع جوا وابعد مدى من تعريفهم للسياسي والحازم وغيرهما، وهو ما حمل المستشرقين على تفضيل معاوية على تاليران، وبسمارك اذ كان العربي في نظرهم ابعد غوراً، وأعلى كعباً في السياسة من هذين الرجلين الشهيرين.

ويقول «ولهوسن» انه كان سياسياً داهية، لا يتعجل الامور ولا يخطيء وضع الشيء في غير موضعه، ومن براعته السياسية اكتسابه عطف السوريين بحيث كانوا اطوع له من يده، ومن عبقريته احسانه في اختيار اعوانه ورجاله، لم يخطيء في اختيار احد منهم، ولم يقع إلا على البارع الذكي الجرىء الحازم.

وقد عرف رجال العرب فيه هذا الدهاء الغريب ، وهذه النعومة القاتلة ، فكانوا يتوقونه ، ويخشون شره وقد اشار علي رضي الله عنه الى هذه الظاهرة في كتاب بعث به الى زياد يوم كان هذا من ولاته يحذره من معاوية ودهاء معاوية ، ونظرة الى عهد معاوية وما قام به من اعمال سياسية تجعلنا نتساءل فيما اذا كان معاوية قد اطلق لسياسته العنان، واستعمل السم حقاً في اقرار ملكه وتثبيت حكمه كما يحاول بعض المؤرخين ان يروجوا له في كتبهم ، ويؤيدوه في سيرهم وآثارهم .

***

يقول بعض المؤرخين ان معاوية قد دس السم الى الحسن بن علي وانه فعل مثل ذلك بعبد الله بن خالد بن الوليد ، لما خشي نفوذه بين اهل الشام ، كما بعث الى الاشتر النخعي من كبار رجال علي من دس له السم ايضاً وهو في طريقه الى مصر .

ومعاوية وان كان من الاشخاص الذين تدل حياتهم واعمالهم على انهم لا يتورعون عن استخدام مختلف الوسائل للوصول الى اغراضهم بصرف النظر عن محاسنها وفضائلها ، إلا اننا من جهة اخرى ، لا نستطيع ان ننكر عليه ذكاءه وعبقريته ، وهما امران لا يسمحان لصاحبهما بالتورط في اعمال قد تعود عليه بالخطر الداهم، والفشل المريع ، ومعاوية في الواقع كان رجلاً حذراً ذكيا ،

والاخبار التي لدينا عن موت هؤلاء الثلاثة لا تضطرب في شيء راهن ، خصوصاً ما يتعلق بموت الحسن رضي الله عنه ، فانهم يقولون ان معاوية دفع زوجته الى وضع السم في طعامه ففعلت ، وكان موت الحسن فجأة فاتهموا معاوية به ، لانه كان يخشى ان تعود الخلافة اليه بعد موته ، فيكون معاوية والحالة هذه اكثر الناس استفادة من موته ، وهذا ما حمل بعض المؤرخين على اتهامه على ما يظهر .

والخبر على هذه الصورة مشوه كل التشويه ، وليس فيما لدينا من اخبار ما يؤيد هذه الرواية كل التأييد ، خصوصاً وأثر الصنعة والاختلاق ظاهر عليها ، ولو كانت امراً واقعاً لكان بطوق اعداء معاوية ان يتخذوا منها حجة على اثارة الناس عليه في عهده ، ولكنها قصة وضعت بعد موته كما يظهر لنا ، وقد صار وضعها بعد مقتل الحسين رضي الله عنه .

***

واما موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فقد اشتد الجدل حولها بين المستشرقين ، وذهب « دي غويي » يقول :

« ان الخبر الذي ينسب موته الى معاوية ضعيف جداً ، والاقرب الى الحقيقة ان نقول انه لما عاد مريضاً من غزوة غزاها انفذ اليه معاوية طبيبه الخاص لمعالجته ، فلم يوفق وتوفي عبدالرحمن

فولى معاوية خالداً ابنه مكانه ، وقام احد انسباء عبد الرحمن بن خالد فقتل الطبيب ، ومن هنا استطارت التهمة ، واشتهرت بين الناس ، فذهبوا الى ان معاوية هو الفاعل »

وحكاية الخبر كما ترويها كتب السيرة انه لما عظم شأن عبد الرحمن بن خالد عند اهل الشام ، ومالوا اليه بما عندهم من آثار ابيه وشدة بأسه ، خافه معاوية على نفسه وحفدته من بعده ، فامر ابن الأثال الطبيب ان يحتال في قتله ، وضمن له ان يضع عنه خراجه ماعاش ، وان يوليه خراج حمص ، فدس ابن الأثال اليه شربة عسل مسمومة مع بعض مماليكه فشربها ومات ونجا معاوية منه [1]

والخبر على هذه الصورة مشوه ايضاً ، والاصح ان يقال ان معاوية انفذ طبيبه لمعالجته لما علم بمرضه ، فلم يوفق الطبيب ، وإذا كان معاوية يريد قتله ، فقد كان من الحكمة ان يبعث اليه بغير طبيبه الخاص ، ابعاداً للتهمة ودرءاً للشكوك .

***

واما مقتل الاشتر ، فيقولون انه لما انفذه علي رضي الله عنه الى مصر واتت معاوية عيونه بالخبر ، عظم عليه ذلك ، فبعث الى الجايستار وهو رجل من اهل الخوارج فقال له :

ــ ان الاشتر قد ولي مصر ، فان انت كفيتنيه لم آخذمنك

---

(١) ابن الاثير

خراجاً ما بقيث فاحتل له بما قدرت عليه .

فخرج الجايستار حتى اتى القلزم ـ مما يلي حدود مصر ـ واقام ينتظر الاشتر ، فلما قدم عليه ، استقبله الجايستار وقال :

ـ هذا منزل، وهذا طعام وعلف، وانا رجل من اهل الخراج.

فنزل به الاشتر، فاتاه بعلف وطعام ، حتى اذا طعم اتاه بشربة من عسل ، قد جعل فيها سماً فسقاه اياها فلما شربها مات .

واقبل معاوية يقول لاهل الشام :

ـ ان علياً وجه الاشتر الى مصر، فادعوا الله ان يكفيكموه.

فكانوا كل يوم يدعون الله على الاشتر ، واقبل الذي سقاه الى معاوية فاخبره بهلك الاشتر ، فقام معاوية في الناس خطيباً فحمد الله واثنى عليه وقال :

« اما بعد فانه كانت لعلي بن ابي طالب يدان يمنيان قطعت أحداهما يوم صفين « يعني عمار بن ياسر » وقطعت الاخرى اليوم « يعني الاشتر » [1].

فلما بلغ الخبر الى عمرو بن العاص قال : ان لله جنوداً من العسل [2]

***

---

(١) ابن الاثير

(٢) المقريزي

هذه رواية الطبري عن موت الاشتر ، وهي في الواقع تحتاج الى كثير من النقد ، فمعاوية الداهية ، ومعاوية الذكي البارع ليس من الرجال الذين يعلنون اغراضهم على ملأ من الناس في جامع دمشق ، واذا كان حقاً قد كلف الجايستار بقتل الاشتر فقد كان من المعقول جداً ان يبقي سره لنفسه ، وان لا يسأل اهل الشام الدعاء على الاشتر ، لان في ذلك إثارة للظنون ، وتأييداً للتهمة .

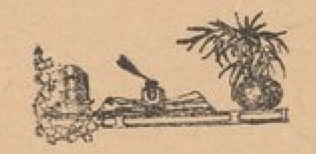
ثم ان الاشتر كان يسافر منفرداً ، وكان سفره سراً من الاسرار ، واذا كانت عيون معاوية قد عرفت بمسيره ، فان نقل الخبر الى معاوية كان يحتاج الى وقت طويل ، وفي هذه الفترة يكون الاشتر قد ركب الصحراء الى مصر ، ولم يكن بطوق معاوية ان يبعث الى الجايستار بالخبر لضيق الوقت ، وصعوبة الاتصال بالرجل في مثل هذه السرعة .

وشي آخر ايضاً وهو ان معاوية كان يستطيع القبض على الاشتر الذي كان يسافر منفرداً بارسال عصبة من رجاله اليه ، وحبسه ومحاكمته ، والحكم عليه بانه كان السبب الاساسي في مقتل عثمان .

فاستعمال معاوية السم والحالة هذه لا يقوم على برهان محسوس ولا ينتظم مع ما لدينا من الاخبار ، ونحن وان كنا لا ننكر ان معاوية لم يكن يتورع عن استعمال هذه الطريقة للقضاء على خصومه

إلا اننا لا نطمئن كثيراً الى هذه الاخبار لمخالفتها الواقع ، ولعدم قيامها على اساس ثابت، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والمستشرقون الاوربيون الذين عرضوا لهذه الناحية يرون رأينا ، وقد تكلفنا الاستعانة بمعلوماتهم كثيراً ، وهؤلاء ليسوا من انصار علي ولا معاوية ، وليس غرضهم فيما يكتبون إلا الحقيقة التاريخية ، وهو ما نحاول اقراره في هذه البحوث التي نريدها بعيدة عن الهوى ، غريبة عن الخيال والاحلام .



## - ١٩ -

# ثروة الدولة في عهد معاوية

عرضنا لثروة الدولة الاسلامية في عهد رسول الله والخلفاء الراشدين في ما سلف من كتب ، ونريد اليوم ان نعرض للثروة جملة واحدة بحيث يتصل الكلام ويتسق البحث ، فنقول ان ثروة الدولة في عهد رسول الله كانت عبارة عن بقايا الزكاة من ابل او خيل او ماشية ، وكانت تمتاز عن اموال الناس بمراع خاصة تحبس فيها ، وقد بلغت هذه الثروة في عهد رسول الله ٤٠،٠٠٠ بين ابل وخيل وغيرها [١] ومن هذه الاموال وما يلحق بها من مال الصدقة كانوا ينفقون على غزواتهم واعالة الفقراء والبؤساء والتعساء.

فلما توفي رسول الله وولي الخلافة الصديق لم يكن بين يديه غير ما ذكرنا ، وكانت النقود قليلة عند المسلمين ، فلما اخذوا يقتحمون امصار فارس والروم ازدادت الواردات زيادة مدهشة ، وكثرت الاموال والدراهم بين ايديهم بحيث ازهلتهم كثرتها ، فوضع الفاروق الديوان وفرض الرواتب للعمال والقضاة ، ومنع

---

(١) شرح الموطأ

ادخار المال وحرم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة إلا على قدر[١] لان ارزاقهم وارزاق عيالهم انما تدفع لهم من بيت المال ، حتى عبيدهم ومواليهم فلماذا العمل ولماذا المتاجرة ، وحجة الفاروق ان يبقى المسلمون جنداً على اهبة الرحيل لصد غاز او رد عدو ، فلا يمنعهم انتظار الزرع ، ولا يقعدهم الترف والقصف ، واذا اسلم احد من اهل الذمة — سكان البلاد الاصليين — صار ما كان في يده من الارض وداره ، الى اصحابه من اهل قريته تفرق فيهم وهم يؤدون عنها ما كان يؤدي من خراجها ويسلمون اليه ماله ورقيقه وحيوانه ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين[٢]

وكانت غاية الفاروق من هذا ان يبقى اهل الذمة وارضهم مصدراً للمال الذي يحتاج اليه المسلمون في جهادهم ووقفاً لمصالحهم مدى الدهر ، اما إذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم ولا يمضي بضعة اجيال حتى تصير املاكاً خاصة بهم ، وعمر يريد ان يبقيها محبوسة على آخر هذه الامة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه من المشركين.

ولكن رأي الفاروق في عدم اختزان المال لم يدم طويلا ،

---

(١) تاريخ المقريزي

(٢) تاريخ ابن عساكر

ذلك انه كان حسناً ما دامت الامة بدوية ، وما دامت كلها جنداً ، فاذا اخذت تنعم بالحضارة ، وتفكر بالترف ، وكانت مجبرة على ذلك حتماً باتصالها بالروم والفرس فقد كان من الواجب ان تتبدل هذه الظاهرة ، وهو ما حدث فعلا ، فلما مات عمر بن الخطاب اخذ المسلمون يزرعون الارض ويشترون الدور ، ويختزنون الاموال ، حتى فشت لبعض الصحابة فاشية عظيمة من مال ومزارع وابل واغنام وحتى كان دخل واحدهم يقدر بآلاف الدراهم في الاسبوع الواحد .

***

وشيء آخر ايضاً ، وهو انه لما فتح المسلمون الشام واقروا الارضين في ايدي اصحابها ، كان جانب كبير منها ملكاً للبطارقة قواد جند الروم وغيرهم من الجند والرعية الذين قتلوا او هربوا الى ارض الروم ، وظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها فاوقفها المسلمون على بيت المال فكان العمال يضعونها في الضمان ويضيفون دخلها الى بيت المال ، فلما استقر معاوية في الشام واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفاً وميلاً كتب اليه : ان الذي اجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الامصار ورسل امرائهم ، ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف في كتابه هذا المزارع ، وانه لا مالك لها

وليس هي من قرى اهل الذمة ، ولا الخراج ، وسأله ان يقطعه اياها [١] ، وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتباً مقداره الف دينار في السنة [٢] — وهو راتب حسن جداً في تلك الايام — ولكن عثمان اجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبساً على نفسه واهل بيته ، وجرأه ذلك الى التمادي في اقتناء الارضين وبيعها في ايام خلافته والاذن للمسلمين في ذلك .

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والعقار ، مثل طلحة والزبير وسعد ويعلي وغيرهم وزادت اموالهم وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فانه اقتنى الضياع الكثيرة واختزن الاموال ، فوجدوا عند خادمه بعد موته ١٥٠،٠٠٠ دينار ومليون درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وصنين وغيرهما مائة الف دينار ، وخلف خيلاً وابلاً [٣] فكثرت في ايامه الدراهم وزادت الاموال ، واقطع الارض لكثير من رجاله وانسبائه مما لا سبيل الى تفصيله في هذا الفصل .

وقد كان من امر اختزان معاوية للمال ان اختلف مع ابي ذر الغفاري ، وكان ابو ذر مغالياً في التمسك بقاعدة عمر وكان يرى

---

(١) تاريخ ابن عساكر

(٢) تاريخ المقريزي

(٣) تاريخ المسعودي

« ان المسلم لا ينبغي له ان يكون في ملكه اكثر من قوت يومه وليلته او شيء ينفقه في سبيل الله او يعده لكريم » وكان يقوم في الشام ويقول :

ـ يامعشر الاغنياء واسوأ الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم »

وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله ، واوجبوه على الاغنياء ، فشكا الاغنياء الى معاوية مايلقون منهم ، وكان معاوية يشكو امره من شكايتهم لان ابا ذر ، وبخه غير مرة لاختزانه المال ، ومما قاله على اثر بنائه قصر الخضراء في دمشق وقد سأله معاوية :

ـ كيف ترى هذا ؟

فقال ابو ذر : ان كنت بنيته من مال الله فانك من الخائنين ، وان كنت بنيته من مالك فانك من المسرفين .

***

والواقع ان الثروة في عصر الراشدين كانت محرمة على المسلمين ولكن تحريمها على المسلمين لم يدم طويلاً كما قدمنا ، لان بقاءه يقتضي بقاء عمر بن الخطاب او من يكون في مثل مناقبه وتقواه

وشدته مع بقاء العرب على الفطرة البدوية ، فلذلك لم يكد يختلط العرب بالروم والفرس ، حتى تاقت نفوسهم الى الترف وحشد الاموال ، وساعدهم على ذلك رغبة معاوية في استمالة الاحزاب والانصار اليه بالمال ، فكثر بين ايدي الناس ، وتدفق في وجوه المنافع والاغراض .

فلما ولي عثمان ابدل الحالة ، واخذ باقطاع الارض للمسلمين لانه رأى اقطاعها اوفر لغلتها من تعطيلها ، فاخذوا يزرعونها ويتعهدونها ويعملون على الانتفاع منها ، يساوقون بذلك مزارعي الروم والفرس في عهدهم .

ومن المؤكد ان قريشاً لم تكن تعنى بالزراعة من حيث قيامها بنفسها بها ، وانما كانت تعهد الى الموالي واهل الذمة في تعهد ما لديها من الارض على ان يدفعوا لخزانة الدولة عشر المحصول ، فاصبح والحالة هذه للدولة الاسلامية مورد ثابت لا يتعلق بالفتوح والغزوات قدره (فون كرمر) بخمسين مليوناً من الدراهم عهد عثمان .

وكان معاوية فذاً في استعمال المال ، وتصريف ثروة الدولة الاسلامية في عهده ، يكتسب به رضاء الجمهور ، ويروج بواسطته لمختلف اغراضه ومنازعه ، وكذلك كان كل من ائتم بهديه وسنته في البذل والعطاء ، وفي التوسعة على من آزرهم ، وعمل على نصرتهم

فقد زاد معاوية في العطاء لمن شهد مواقعه ، كما فرض الاعطية للشعراء ، يسترضيهم بسياسته ونواله ، لينشروا في الآفاق ذكره ، ويرفعوا الى السماكين فضله ، حتى قصده الشعراء وناصروه ، وحتى علم الخاص والعام ، انه ان مدحه أثراه ، وإن استرفده أغناه ، وإن ناصره راشه وأعلى مكانه ، فاضحى نجعة الرواد ومقصدهم ، وموئل القصاد ومنهلهم .

وكما كان المال من الاسباب العظيمة في بناء ملك معاوية ، كان كذلك من الاسباب التي هدمت ملك امية ، ومزقت عرشهم فقد ذهب بعض خلفاء امية الى حرمان مدن بحذافيرها من عطائها ، كما حصل لاهل مكة والمدينة إذ حرموا سنة كاملة ، وكان معاوية قد زاد عطاء اهل البيت مثل الحسن والحسين وعبد الله بن عباس الى مليون درهم في السنة فضاعفها مائتي مرة عن حساب ديوان الفاروق رضي الله عنه .

ومن المؤكد ان المدن التي حرمت من العطاء ، والقبائل التي اضعف خلفاء امية اعطياتها وجوائزها ، اخذت تتنكر لهم ، وتعمل للثورة ضدهم ، وكانت قلة الاموال في اواخر عهد الامويين من الاسباب الفعالة التي مكنت آل العباس من النهوض والثورة على النظام القائم ، كما كان من شأنها توطيد حركتهم ، وذيوع امرها في مختلف المواطن والامصار .

ومن هذا يظهر لنا ان المال الذي كان إلى حد بعيد سبباً في بناء عرش امية، كان ايضاً إلى حد بعيد سبباً في انهيار هذا البناء .

***

وعلى ذكر سياسة عمر بن الخطاب في عدم اختزان المال ، ليظل المسلمون جنداً للحرب والغزو ، نقول ان الفاروق هو اول من اسس ديوان الجند بالمدينة ، ودوّن فيه اسماء الرجال وفرض اعطياتهم ، ولم يكن هذا الديوان يعرف بديوان الجند ، وإنما كان يسمى « الديوان » فقط ، وكان يشمل اسماء المسلمين من المهاجرين والانصار ومن تابعهم ومقدار اعطياتهم وفاقاً لقرابتهم من رسول الله ، وسابقتهم في الاسلام ، ، فكانه ديوان المسلمين ، لان المسلمين كانوا كلهم جنداً في ذلك الحين ، وظل العطاء يقوم على اساس النسب والسابقة حتى انقرض السوابق وصار الجند فئة من المسلمين قائمة بنفسها غير مرتبطة بسابقة او نسب او غير ذلك، وكانت اعطيات الجند او المسلمين في عهد رسول الله غير محدودة تتبع مقدار الغنائم في الغزوات والمعارك المختلفة ، فكان يفرد الخمس لرسول الله ، ويفرق الباقي في الصحابة على السواء دون ما تميز في السابقة او النسب ، وجرى على ذلك ابو بكر ، فلما تولى عمر ووضع الديوان ميز الناس في العطاء باعتبار النسب والسابقة ، فرتبهم طبقات ، وميز كل طبقة وفاقاً لنسبها من رسول الله

وسابقتها في الاسلام ، واليك جريدة برواتب الجند السنوية في عهد عمر :

| | درهم |
|---|---|
| لكل من الذين شهدوا واقعة بدر | ٥٠٠٠ |
| « « « لم يشهدوا « « | ٤٠٠٠ |
| « « ازواج النبي | ١٢٠٠٠ |
| العباس عم النبي | ١٢٠٠٠ |
| الحسن والحسين | ٥٠٠٠ |
| عبد الله بن عمر بن الخطاب ابن الخليفة | ٣٠٠٠ |
| كل من ابناء المهاجرين والانصار | ٢٠٠٠ |
| كل واحد من اهل مكة | ٨٠٠ |
| « « « سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم | ٣٠٠ ــ ٥٠٠ |
| لكل من نساء المهاجرين والانصار | ٢٠٠ ــ ٦٠٠ |

تلك هي اعطيات المسلمين او رواتب الجند على عهد عمر مع اختلاف طفيف ببعض الروايات فاذا اعتبرت مقادير هذه الرواتب وقابلتها برواتب هذه الايام رأيت الفرق عظيما ، فاذاقدرنا الدرهم باربعة غروش ذهبية على وجه التقريب كان راتب اعظم رجال الاسلام لا يزيد عن مئتي ليرة ذهبية في السنة، وإذا اعتبرنا المسلمين كلهم جنداً كان المهاجرون والانصار ضباط

ذلك الجند ومنهم عمر نفسه ، واما الانصار فهم الذين عبرنا عنهم « بسائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم » ورواتب هؤلاء اقل كثيراً من رواتب اولئك ، فانها تختلف من ثلاثمائة الى خمسمائة درهم باختلاف بعض الاعتبارات من حيث القبيلة وجهادها ، ومقدار فضلها في الاسلام ، و على ذلك تكون رواتب ضباط الجند الاسلامى على عهد عمر من اربعة آلاف الى خمسة آلاف درهم في العام ، ورواتب العساكر من ثلاثمائة الى خمسمائة درهم ، غيرما كان يدفع لنسائهم واولادهم ، وما فرضه لهم من الحنطة وهو جريبان لكل واحد في الشهر ، والجريب (٣٦٠٠) ذراع مربع ويراد به ما ينبت في تلك المساحة من الارض ، وخلاصة ذلك ان رواتب صغار الجند في اوائل الاسلام كانت تزيد على رواتب انفار اجناد هذه الايام وبعكس ذلك رواتب قوادهم .

***

وظلت اعطيات الجند على هذا القدر في ايام الراشدين ، فلما طمع بنو امية بالملك واحتاج معاوية الى استنجاد العرب ، كان في جملة ما استخدمه في سبيل استنجادهم المال ، فزاد في اعطيات الجند وكان جنده ستين الفاً ينفق عليه ستين مليون درهم في العام فيلحق كل رجل الف درهم وذلك اكثر من ضعفي ما فرضه عمر بن الخطاب .

وكان في مقدمة القبائل التي اخذت بيده وحاربت عنه وايدت دعوته قبائل اليمن وهي انما فعلت ذلك رغبة في العطاء لان الرغبة في الحرب لمجرد الجهاد كانت قد خمدت بذهاب عصر الراشدين وانقضاء دهشة النبوة ، فجعل معاوية اليمنية فرقة قائمة بنفسها ، وعدتهم الفا فارس ، وفرض لهم عطاءً مضاعفاً ، وجعلهم جنداً مستقلاً لا يختلطون بسواهم وكان يستشير امراءهم ويقربهم ، فاستفحل امر اليمنية حتى عرضوا بذكر فضلهم على بني امية ، وانهم لو شاؤا لاخرجوا المضرية من الشام « وفيهم بنو امية » فندم معاوية على اختصاصهم بذلك الامتياز ، وقرب منهم القيسية واعطاهم مثل عطائهم وصار يغزي البحر باليمنية والبر بالقيسية ، فشق ذلك على اليمنية لان القيسية من مضر فعاتبوه ، فجمع بين القبيلتين واغزاهم معاً .

ولم يكن معاوية يعتمد على المال في استرضاء الجند فقط بل يستخدمه في اصطناع الاحزاب وتخفيف ويلات المتعصبين عليه ، وكان كثيراً ما يأمر عماله بزيادة اعطيات اناس يعرف انهم من انصار علي واولاده .

وكان معاوية اول من احصى الارض وعرف مقاديرها ، وان كان هذا الاحصاء يضطرب في كثير من المنفعة الخاصة لانه

اخذ يكتب الارض التي لا اصحاب لها باسمه ويقطعها الى انسبائه واهله، وهو اول خليفة في الاسلام، استعمل نفوذ الخلافة للاستكثار من الارض والاموال.

ولكن الحق الذي لا شبهة فيه هو ان توزيع الارض على الناس، واستثمارها قد افاد الدولة الاسلامية كثيراً، لان الاموال التي غذتها اول نشأتها من الفتوح والغزوات كانت قد نفذت، ولم تبق فتوح وغزوات يصح ان تكون اساساً لخزانة الدولة، فكان تعهد الارض وزرعها ضرورياً للقيام بمصارفات هذه الدولة الناشئة.



## - ٢٠ -

# معاوية في اواخر ايامه

لقد تبسطنا في ما سبق من فصول في نواح كثيرة من شخصية معاوية، فعرضنا لدهائه وسياسته، وحلمه وذكائه، ونعرض الآن لشخصيته جملة واحدة، فنرى انه مع كل ما كان ينعم به من المزايا كانت تنقصه مزية واحدة وهي الجرأة الحربية التي كان ينعم بها علي رضي الله عنه.

ونظرة الى تاريخه وحياته الطويلة تدلنا على انه كان يأنف من الحرب، ما كان الى ذلك سبيل ويحاول ما استطاع تسوية شؤونه بالبذل والعطاء والسياسة والدهاء، ولعل مرد ذلك ما القي في روعه من عدم استقرار حكمه، وثبات ملكه، ونفرة الكثيرين من سياسته وخلافته فكان والحالة هذه لمعرفته بنواحي الضعف في منازع الاحزاب في الامبراطورية الاسلامية، يخشى اذا هو اوقد نار الحرب، ان يغتنم خصومه هذه الفرصة، فيهاجمونه وينازعونه سلطانه.

وكان يكره الحرب الداخلية كرهاً عظيما، ويخشى عواقبها

ومصايرها ، وكثيراً ما رأيناه اثناء خلافته يعمد الى اخماد نار الثورة بالحيلة والبذل حين يحس بها ، ولو كان في ذلك ما يضعف شأن الدولة ، ولا يساعد على تغذية نفوذها واستطارة شأنها وبطشها وقوتها .

واذا كنا رأيناه يبعث البعوث الى القسطنطينية فقد كان ذلك منه اضطراراً ، لانه كان يعلم انه اذا لم يحارب الروم في عقر دارهم فانهم غير تاركيه وشأنه ، وقد يحسبون سكوته ضعفاً فيهاجمون حدوده ، ويمعنون في امصار الامبراطورية الاسلامية فتكاً وغزواً .

واما غزواته في البحر فليست من الخطورة بحيث تعد عملاً حربياً من الطراز الاول ، ولكنها تدل من جهة اخرى على ما كان ينعم به معاوية من عبقرية ادارية ليس لها مثيل عند غيره من قواد عصره ورجال ملكه .

وما هذا الجند المنظم الذي وطد شأنه في الشام ، ولا هذا الاسطول الذي عني بانشائه وتغذيته إلا دليلاً على عبقريته الادارية والعسكرية ، وبرهاناً على انه اذا لم يكن رجل حرب ، فانه كان رجل إدارة من الطراز الاول .

***

وهناك ظاهرة ثانية في حكم معاوية تبعث على النظر وتستدعي من المؤرخ بعض الاهتمام، وهي رغبته في ان لا يرسل الجند السوري خارج سوريا، وسبب ذلك ان هذا الجند كان قوام دولة بني امية، واساس حكمها، فارساله الى الخارج قد يفسده بما يتسرب اليه من الآراء الغريبة والمذاهب السياسية الجديدة، وكان معاوية قد خلق هذا الجند وفاقاً لرأيه ومذاهبه السياسية، فكان يخاف عليهم ان يتخذوا مذهباً غير مذهبه، ويستمعوا الى آراء غير آرائه، وهو ما كان يمنعه عن ارسالهم الى الخارج إلا لاخماد ثورة، فاذا انتهت الثورة ردهم الى مواطنهم، ولم يسمح لاحد منهم بالتوطن خارج ارضه.

وقد اشتهر جند دمشق بطاعته، واخلاصه لامية، وكان الحجاج كثيراً ما يعرض لهذه الظاهرة في خطبه معرضاً باهل العراق، واختلافهم، ممتدحاً طاعة اهل دمشق واتفاقهم، وكان كثيراً ما يهدد اهل العراق باهل الشام اذا خشي منهم ثورة او أحس بفتنة قريبة، وقيام عام.

وكان معاوية يقدر طاعة جند الشام، وثباتهم في الاخلاص لملكه، فكان يقرب رؤساءهم اليه، ويزيد في اعطياتهم ويغدق عليهم العطايا والهبات، بحيث كان الجند يحبون معاوية حباً عظيماً،

ويضحون في سبيله بانفسهم واموالهم .

***

ولا يبعد ان يكون معاوية وقد اطلق نظره في انحاء الامبراطورية قد رأى من حسن السياسة ، وبعد النظر ان يعمد الى توحيد صفوفها ، وتثبيت اقدامها في الامصار التي افتتحتها قبل ان تباشر فتوحاً جديدة ، تفني فيها نفسها فلا يكون بطوقها بعد ذلك تنظيم ما افتتحته والاحسان في هذا التنظيم بحيث يكون ثابتاً قوياً .

وليس من شك في ان الفتوح الاسلامية الاولى ، وقد امتدت من مشرق الارض الى مغربها ، كانت بحاجة ماسة الى ادارة قوية وحكام اشداء نبهاء ، ونظم ادارية جديدة تساوق بين الروح العربية ، وروح الامم التي اندمجت في القومية العربية باسم الدين او الفتح ، وهذه كلها كانت من الخطورة بحيث لم تغب عن ذهن معاوية ودهائه وذكائه .

ولذلك نراه في آخر ايامه ينصرف انصرافاً جدياً الى تسوية خلافاته مع الروم ، ويعمد في نفس الوقت الى مبايعة يزيد بالخلافة حتى لا تكون فتنة من بعده ، وحتى يجد المسلمون انفسهم امام امر واقع ، وامام قائم ، وملك عضوض ، كما نراه ينصرف الى

تنظيم المملكة الاسلامية ، وتخفيف حدة قبائلها ، والعمل على توحيد صفوفهم ، ومساعدتهم على التوطن وزراعة الارض ، لان المزارع يكون بعيداً عن الخلاف والفتن لما تجره هذه من الاضرار عليه وعلى زراعته ، ولم يغفل عن توطيد اسم الخلافة ، وتعزيز السلطة المركزية في كل امصار الامبراطورية .

***

وكانت الدولة الاسلامية أيام معاوية في أول نشأتها ، وتأسيس ملكها ، وكانت هذه الاعوام الاولى في تشييد هذه الامبراطورية من أصعب الاعوام ، واشدها نصباً ، ونحن نتصور معاوية يقضي ليله يفكر في توطيد ملكه ، وتعزيز سلطانه ، وقتل المعارضة في مهدها ، وتألف الاحزاب بالمال والعطاء ، ثم نراه يفكر في عماله ، وهل تراهم احسنوا في السير على خطته ، وتأثر خطواته ، وما كان شأن زياد ابن ابيه معه ، وكيف توفق آخر الامر إلى إخضاعه وضمه إلى أنصاره وأعوانه ، وكان معاوية يعجب بزياد إعجاباً عظيماً وإن كان لا يحبه كثيراً ، فكان يذكر قول زياد : ملاك السلطان اربع خلال :

« العفاف عن المال ، والقرب من المحسن ، والشدة على المسيء ، وصدق اللسان » .

وكان زياد اول من بسط الارزاق على عماله ، الف درهم الف درهم ، ولنفسه خمسة وعشرين الف درهم ، وكان يقول :

— ينبغي للوالي أن يكون أعلم باهل عمله منهم بانفسهم.

ومن المؤكد ان زياداً كان احب الى معاوية من عمرو بن العاص ، ولو طالت ايام عمرو ولم يمت في السنوات الاولى من خلافة معاوية لوقع بين الرجلين خلاف كبير ، وان كان معاوية ابعد الناس عن مثل ذلك ، ولكنه كان ضيقاً بما ناله عمرو بن العاص ، خصوصاً وعمرو لم يكن من الرجال الذين يقدرون هذا الفضل لمعاوية ، بل كان كثيراً ما يتحدث الى حاشيته بان معاوية ما كان لينال الخلافة لولا سعيه وتأييده .

***

وإن من دهاء معاوية حقاً استمالة عمرو بن العاص اليه ،وكان اول ما نشبت الفتنة بين امير المؤمنين علي ومعاوية،معتزلاً للفريقين فرأى معاوية ان يستميله ، ويتقوى برأيه ودهائه ومكره فاستماله، ووصل حبله بحبله ، وولاه مصر ، ولم يكن بينهما مع ذلك مودة قلبية ، كانا يتباغضان سراً ، وربما ظهر ذلك على صفحات وجوههما، وفلتات السنتهما .

طلب امير المؤمنين علي في صفين من معاوية ان يخرج الى

مبارزته ، فقال له عمرو بن العاص :

ـ قد انصفك ، ولا يحسن منك النكول عن مبارزته .

فقال له معاوية : غششتني واحببت قتلي .

وقال معاوية يوماً لجلسائه :

ـ ما اعجب الاشياء ؟

فقال يزيد : اعجب الاشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والارض، لا يدعمه شيء تحته ولا هو منوط بشيء من فوقه .

وقال آخر: اعجب الاشياء حظ يناله جاهل، وحرمان يناله عاقل

وقال عمرو بن العاص : اعجب الاشياء ان المبطل يغلب المحق ـ يعرض بعلي ومعاوية ـ

فقال معاوية : بل اعجب الاشياء ان يعطى الانسان ما لا يستحق اذا كان لا يخاف ـ يعرض بولاية عمرو لمصر ـ

فنفث كل منهما بما في صدره من الآخر .

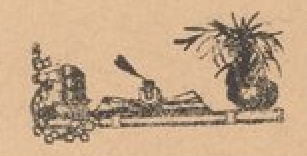
ولكن عمراً توفي في اول خلافة معاوية كما قدمنا ، فحمدالله معاوية وسجد شاكراً ان نجاه الله من شخصية كان لا يطمئن لها إلا على قدر ، وكان يخشى دسائسها واحابيلها كثيراً .

***

واما زياد فكان اقرب الى معاوية من عمرو والمغيرة ، وكان معاوية يثق به اكثر من ثقته بغيره ، كما انه كان يعتمد كثيراً

على شدته وبطشه وبعد نظره، ولكن زياداً في ولايته كان منصرف الهمة الى تنظيم المصر الذي عهد به اليه ، اكثر منه الى توطيد ملك معاوية

ونظن ان زياداً من الاشخاص الذين كانوا يحسون برغبة ملحة في تولي المناصب ، بحيث لا يجدون كبير امر في الانتقال من خدمة شخص الى آخر ، مادام في هذا الانتقال مصلحة خاصة ، ومجد دائم متصل .



## -٢١-

# معاوية وتدبير الملك

كان معاوية مصروف الهمة الى تدبير أمر الدنيا ، يهون عليه كل شيء اذا انتظم أمر الملك ، فانظر الى وصف عبد الملك ابن مروان له لما مر بقبره يوماً ، فترحم عليه ، فقال له رجل :

ـ قبر من هذا يا أمير المؤمنين ؟

قال : قبر رجل كان والله فيما علمته ، ينطق عن علم ، ويسكت عن حلم ، كان اذا اعطى اغنى ، واذا حارب افنى

ووصفه عبد الله بن العباس وكان من النقاد فقال :

ـ ما رأيت اليق من اعطاف معاوية بالرياسة والملك

وقال له بعض بني امية والله لو قدرت ان تستكثر بالزنج لاستكثرت بهم لينتظم لك أمر الملك .

ومن اخبار معاوية هذه القصة الغريبة التي يرويها الفخري عنه قال :

« بعث معاوية الى رجل من الانصار بخمس مئة دينار ، فاستقلها الانصاري وقال لابنه :

ـ خذها وامض الى معاوية فاضرب بها وجهه وردها عليه.

واقسم على ابنه ان يفعل ذلك، فجاء ابنه الى معاوية ومعه الدراهم ، فقال :

ـ يا أمير المؤمنين ، ان أبي فيه حدة وسرعة ، وقد امرني بكيت وكيت واقسم علي ، وما أقدر أن اخالفه .

فوضع معاوية يده على وجهه وقال :

ـ افعل ما أمرك ابوك ، وارفق بعمك .

فاستحيا الصبي ورمى بالدراهم ، فضاعفها معاوية وحملها الى الانصاري ،وبلغ الخبر يزيد ابنه فدخل على ابيه غاضباً وقال :

ـ لقد افرطت في الحلم ، حتى خفت ان يعد ذلك منك ضعفاً وجبناً .

فقال معاوية : اي بني انه لا يكون مع الحلم ندامة ؛ ولا مذمة ، فامضى لشأنك ودعني ورأيي .

وبمثل هذه السيرة صار خليفة العالم، وخضع له من ابناء المهاجرين والانصار كل من يعتقد انه اولى منه بالخلافة

***

وروي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لجلسائه :

ـ تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما ، وعندكم معاوية.

ومن الادلة على همته في تدبير امور الملك اقراره البريد

لتصل الاخبار اليه بسرعة ، ومن المؤكد ان البريد من مستحدثات فارس او الروم ، ولكنه لم يكن منظماً مرتباً كبريد معاوية ، ونظنه اخذ من الفرس والروم الفكرة ، ثم خلقها في ذهنه خلقاً جديداً ، واخرج منها هذا البريد العربي الذي كان من اعظم الاسباب التي وطدت ملكه، ومكنه من حكم الامبراطورية الاسلامية وهو في قصره في دمشق

وقد اتينا على ذكر البريد في غير مكان من هذا الكتاب ولكننا لم نتبسط في وصفه التبسط اللازم مع عظيم خطره ، وكبير اثره .

والبريد ان يجعل خيل مضمرات في عدة اماكن ،فاذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها ، وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحا ، وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة .

واما معناه اللغوي فالبريد اثني عشر ميلاً ، ونظن ان الغاية التي كانوا قدروها بين البريد والبريد ، هي هذا القدر .

ووضع معاوية البريد في كل مكان ، لحفظ الاموال وسرعة وصول الاخبار ، ومتجددات الاحوال كما كان من فوائده ان يجعل امير المؤمنين مطلعاً على كل حوادث ملكه ، عارفاً باخبار رعيته مطمئناً الى استتباب الامن في جميع امصاره .

ومما اخترع معاوية من امور الملك ديوان الخاتم وهذا ديوان يعتبر من اكابر الدواوين ، ولا تزال السنة جارية فيه الى يومنا هذا في مختلف ممالك العالم ولولاه لفسدت الادارة ، واضطربت المصالح ، وكان ديوان الخاتم في عهد معاوية عبارة عن انه حين يصدر امر من الخليفة بانفاذ أمر من الامور ، او صرف مبلغ من الخزانة ، يذهب هذا الى الديوان ، ليصار إلى تسجيله وكتابة نسخة عنه ، ثم يحزم بخيط ، ويختم بشمع حفظاً له من الضياع ، ومنعاً من وقوع التلاعب فيه .

وكان الذي حمل معاوية على اختراع هذا الديوان ، انه أحال رجلاً إلى زياد بن ابيه ( امير العراق ) بمائة الف درهم ، فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب ، وكانت التواقيع تصدر غير مختومة ، فجعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه الى معاوية ، انكر معاوية ذلك وقال : ما احلته إلا بمائة الف ، ثم استعادها منه ، ووضع ديوان الخاتم ، فصارت التواقيع تصدر منه مختومة ، لا يدرى أحد ما فيها ولا يتمكن احد من تغييرها .

***

ومن همة معاوية ما تلطف له من تكليف ابن اثال الطبيب في ترجمة كتب الطب اليونانية ، وكان هذا اول نقل في الاسلام ، والظاهر ان معاوية قد احتفظ بهذه الكتب لنفسه فلم يذعها بين

الناس ، ولعلها ظلت في خزائن بني امية ،او انتقلت الى ابناء معاوية بعده ثم ضاعت فلم يعثر لها على أثر ، وقد يكون خالد بن يزيد بن معاوية قد حرص عليها فاحتفظ بها ، لانه كان حكيم بني امية واول من طلب علوم الفلسفة في الاسلام ، وخبره انه كان يطمع في الخلافة ، فلما وثب مروان عليها رغب خالد عنها الى طلب العلم فاستقدم جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر واخذ عنهم صنعة الكيميا والطب وامرهم بنقل الكتب من اليونانية والقبطية الى العربية ، فنقلوها له

ولخالد كلام في الكيمياء والطب وقد كان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما ، وله رسائل تدل على معرفة وبراعة حدثنا عنها ابن خلكان ، ولكن شيئاً منها لم تحفظه لنا الايام.



## -٢٢-

# موت معاوية

كان معاوية آخر ايامه لا يهتم بغير ولده يزيد ، وتمكين ملكه وتثبيت سلطانه، وكان قد وفق إلى حمل الناس على مبايعته، وإن كان يعلم إن الامـة لم تبايعه إلا كرهاً وخوفاً ، ولكنه كان يعلم ان احداً لن يحمل السيف في وجهه إلا واحد من اربعة نفر كان إذا أطال الفكر في أمرهم وجد أمرهم هيناً وشأنهم ضعيفاً إلا ما كان من عبد الله بن الزبير الذي كان أشدهم وأجرأهم وأمضاهم سلاحاً .

فلما مرض مرضته التي هلك فيها دعا يزيد إبنه فقال :

—يابني اني قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الاشياء وذللت لك الاعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، واني لا أتخوف أن ينازعك هذا الامر الذي استتب لك إلا اربعة نفر من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، فاما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك ، واما الحسين بن علي فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ،

فان خرج عليك فظفرت به ، فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ، وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليس له همة إلا في النساء واللهو ، واما الذي يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، فاذا أمكنته فرصة وثب،فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فقدرت عليه ، فقطعه اربا اربا .

ويقال في رواية اخرى ان معاوية لما حضره الموت وذلك في سنة ٦٠ للهجرة وكان يزيد غائباً ، دعا بالضحاك بن قيس الفهري ، وكان صاحب شرطته ومسلم بن عقبة ، فاوصى اليهما فقال :

ـ بلغا يزيد وصيتي، انظر أهل الحجاز فانهم أهلك فاكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب ، وانظر أهل العراق فان سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فان عزل عامل أحب الي من ان يشهر عليك مائة الف سيف ،وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فان نابك شيء من عدوك فانتصر بهم فاذا أصبتهم، فاردد أهل الشام إلى بلادهم فانهم إن أقاموا بغير بلادهم اخذوا بغير أخلاقهم ، واني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، فاما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمساً شيئاً قبلك ، واما الحسين بن

علي فانه رجل خفيف وأرجو ان يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وان له رحماً ماسة وحقاً عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا اظن اهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فان قدرت عليه فاصفح عنه فاني لو اني صاحبه عفوت عنه ، واما ابن الزبير فانه خب ضب فاذا شخص لك فالبد له إلا ان يلتمس منك صلحاً فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما ستطعت .

**

وكان معاوية نهماً شحيحاً عند الطعام ، على كرمه وسماحته ، فاما نهمه فقالوا انه كان يأكل في كل يوم خمس اكلات ، آخرهن اغلظهن ، ثم يقول : ياغلام ارفع ، فوالله ما شبعت ولكن مللت.

واما شحه فيقال انه لم يكن يرتاح لافراط الضيف في الاكل على مائدته ، ولكن هذا لا يتفق مع سخائه وكرمه ، ولعل تفسير ذلك انه كان يعد مثل هذا الافراط في الاكل من قلة الادب على مائدة امير المؤمنين .

واما مرضه الذي توفي فيه فقد اختلف المؤرخون فيه ، ويذهب بعضهم الى انه اصابته لقوة ، فبطل نصفه قبل ان يموت ، وهذا من نوع الفالج .

ويقول الجاحظ : دخل رجل على امير المؤمنين وقدسقطت اسنانه فقال :

ـ يا أمير المؤمنين ان الاعضاء يرث بعضها بعضاً ، فالحمد لله الذي جعلك وارثها ولم يجعلها وارثتك .

ولما احس معاوية بانه لما به ،وثقل عليه المرض، وتحدث الناس انه الموت ، قال لاهله :

ـ احشوا عيني أثمداً ، واوسعوا رأسي دهناً .

ففعلوا ، وبرقوا وجهه بالدهن ، ثم مهد له فجلس وقال :

ـ اسندوني ، وأذنوا للناس فليسلموا قياماً ولا يجلس احد.

فجعل الرجل يدخل فيسلم قائماً ، فيراه مكتحلاً مدهنا فيقول :

ـ يقول الناس هو لما به وهو اصح الناس

فلما خرجوا من عنده قال معاوية :

وتجلدي للشامتين اريهم ... اني لريب الدهر لا اتضعضع
واذا المنية انشبت اظفارها ... الفيت كل تميمة لا تنفع

وروى الطبري قال : قال معاوية لابنتيه في مرضه الذي مات فيه ، وهما تقلبانه : انما تقلبان حولاً قلباً

لقد سعيت لكم من سعي ذي نصب ... وقد كفيتكم التطواف والرحلا

واشتد عليه المرض فقال لمن حوله :

ـ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كساني قميصاً فرفعته، وقلم اظفاره يوماً فاخذت قلامته ، فجعلتها في قارورة فاذا مت

فالبسوني ذلك القميص، وقطعوا تلك القلامة ، واسحقوها وذروها في عيني وفي فيَّ ، فعسى الله يرحمني ببركتها ، ثم تمثل بشعر الاشهب بن رملة :

اذا مت مات الجود وانقطع الندى من الناس إلا من قليل مصرد
وردت اكف السائلين وامسكوا من الدين والدنيا بخالف مجدد

فقالت احدى بناته او غيرها :

ـ كلا يا أمير المؤمنين بل يدفع الله عنك .

فقال متمثلاً :

واذا المنية انشبت اظفارها الفيت كل تميمة لا تنفع

ثم اغمي عليه ، ثم افاق فقال :

ـ اتقوا الله عز وجل ، فان الله سبحانه يقي من اتقاه ، ولا واقي لمن لا يتقي الله .

ثم قضى ، وكانت وفاة معاوية في الشهر السابع من سنة ٦٠ للهجرة ، وفي شهر نيسان من سنة ٦٨٠ ميلادية

---

تم الكتاب

# مصادر الكتاب

استقينا مصادر هذا الكتاب من مؤلفات و كتب كثيرة ، اشرنا الى كثير منها في كتبنا السابقة ( خلفاء محمد ) ورأينا اليوم ونظراً لضيق المكان اللازم وهي تحتاج الى اربع صفحات ان نغفل تعدادها في آخر كتابنا هذا كما عودنا قراءنا ان نفعل فيما سلف لنا من مؤلفات .

ولا بد لنا في هذه المناسبة من ذكر بعض الكتب العصرية التي افادتنا افادة تذكر في انشاء كتابنا هذا، ومنها كتاب معاوية للاستاذ الاديب انيس افندي النصولي فانه اول من درس معاوية دراسة عصرية من المؤرخين العرب، وقد رأينا في مؤلفه كثيراً من الآراء القيمة الناضجة في تفسير شخصية معاوية ،وتفهم اغراضه والوان إدارته، وشتى نواحي خلقه واخلاقه.

ولا يسعنا ان ننكر كتاب لامنس عن معاوية ، وان كان يضطرب في كثير من الاستنتاجات التي لا تتفق مع الحقيقة التاريخية في قليل ولا كثير، ولولا ضيق الوقت ، لعرضنا الكثير منها،وضربنا لقرائنا الامثال في هذه الدراسات التي يصح ان نقول انها بعيدة عن الانصاف، غريبة عن الواقع والحقيقة .

# فهرس الكتاب

# مطبوعات المكتبة الاهلية

عني بطبعه ونشره
محمد جمال
صاحب المكتبة الأهلية

